لعنة آمل

علي أحمد حجازي

رواية: لعنة آمِل
المؤلف: علي أحمد حجازي

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: مروة فتحي
رقم الإيداع: 27870 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-6793-03-3
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

لحنة آمل

(رواية)

علي أحمد حجازي

التاريخ ورقتان؛

ورقةٌ يكتبها الراوي،

وورقة يُسْقِطها التاريخ عمدًا،

وما يتبقّى يكون من نصيب الملوك وما فعلوا.

الورقة الأولى

الزمان: 250 عامًا من الهجرة.

المكان: مدينة آمِل، إقليم طبرستان.

الحكاية: قال الراوي...

(01)

كُلُّهُنّ يتساوَيْن إذا زالت الأبراد أو أُزِيلَت، إلاها وإلا عيناها اللتان شُبِّهَتا ببحر قزوين فاستخفّت نضرتها بعجز البلاغة، وضُرِب بقُمْرةِ جيدها مثلًا، فارتبكت الأمثلة حتى تباينت خللا، واستمال الميزان بفعل قلب عبد الله حين كشفت عن خدِّها وقدِّها بمواجهة ثلوج جبل دمافند.

وُلِدَ عبد الله –في المرة الأولى قبل أن يراها– في إحدى منازل آمِل فتولّى صراخُه التعريفَ به، لم يكن يتقيّد في طفولته بفضاءٍ محدود، ولا حماقةٍ تنفع أو خطأ يعود منه إلى الصواب، ففجور صوابه كان خيرا من شُحِّ خطئه الوحيد؛ يتطلّع إلى الجبل الأبيض ويحفظ الطريق إلى السوق ويتناسى أوامر والده تمّام.

قرّعه والده في السابعة ودقّ على أذنيه اللوم، فاستباحت روحه الهرب؛ فكانت أول مرة.

هَرَبَ من البيت فرأى هند مع والدها تحمل الحطب؛ فكانت أول نظرة، واستيلاء.

سَمِعَ والده أن ابن جرير حفظ القرآن كلَّه وهو في نفس سن ولده البليد، فكان هناك سببٌ آخر يغضب من أجله بعد الفقر وبدلًا منه،

أما عبد الله فارتأى لنفسه أن يظلَّ بجانبها؛ عَمِلَ مع والدها وأحبّ الحطب كحب قُرْبِه منها، استسلم تمّام بعد أن غلبه فقره وحاجته وزوجته لمساعدة الولد.

ظلّ عبد الله على تلك الحال سنوات أخبرته الدروب فيها أن خطايانا عنيدة لا ترجع، وأن ندمنا بليد ورُغم ذلك لا يرتع، وأنك لا ترى صعلوكًا أو غنيًّا في آمِل إلا وبيده الفأس صغيرهم وكبيرهم، يدفعون ثمنًا باهظًا لاعترافهم بالعجز، ويعودون مبتهجين إذا تملّكوا شوكة من الطريق تركها لهم الوالي ومن ولّاه.

أحبّ عمل يديه حتى ما عاد أحد في سوق آمِل من طبرستان أو سقسين أو البلغار من بائعي القصبِ والفواكه والحرير؛ حتى الحلّاق إلّا ويعرفه بالاسم أو بالشبه، أو بنظرات الحب التي كان يرسلُها للبنت التي مَلَكَت قلبه ولُبه واستكانت لها ساعداه؛ إلاها وإلا عيناها اللتان لم تلحظا لمعةَ عينيه.

استبدَّ بعبد الله الوَلَه بفتاتهِ هند بعدما صيّره بائع القصب الطبري متيقّظًا نُبهًا لما يجب أن يُقَال أو يُقرَّر فيُفعَل في كل حكايات الحب المُلْهِمَة، وعى عبد الله أخيرًا إلى وجوب الاعتراف بما يلتحف به قلبه كل ليلة فيعيش نصف الدفء ولا يعلم أن النصفَ الآخر معها وبين يديها.

أخبره بائعُ الحرير الأشهر في سوق آمِل أنه أكثر خبرة من غيره في النساء، وأنهن لا يحببن شيئًا إلا ويعشقن الغالي منه، ولتكونن حبيبته من نصيبه إن أنفق.

ابتاع طبقًا من الكرم –هو كل ما استطاعه– وبادر بوضعه أمام باب بيتها بعدما تأكّد أن الوالد ذهب للصلاة، جرى فاختبأ خلف جدار يعصمه من الرؤية الفاضحة لعشقه، فتحت الباب أختها الصغرى، فَرِحَت بطبق الكرم ثم أخذت تأكله بنهمٍ وهي على الباب حتى انتهت منه بشغفِ العامل حين يُكافأ على عملٍ لم يشقَ فيه كثيرًا، أو لم يشقَ فيه أصلًا!

ضَحِك الحلّاق وهو يُرتّب شعر عبد الله الخشِن وقال له:

– أيا عبد الله، إني لأحسدك، تعلم ما تريده وتسعى للوصول إليه، خِلاف ما أراهم في السوق لا يهمهم سوى المال، وإذا امتلكوا المال مالوا إلى شهواتهم التي لا تنتهي ولا تنفع!

– ولا أَصِل.

– ستصل، آهٍ لو كنت شاعرًا، فتيات كل زمان لا تدخل قلوبهن إلا بأعذب القول.

أخذها عبد الله من فم الحلّاق وانطلق إلى أخيه محمد يطلب منه بعضًا من الغزل الذي يحفظه، وظلّ ليلة كاملة يردّد ما سمعه من أبيات حتى لا ينساها، عدا بعد الفجر نحو أقرب شجرة، تجنّب شجر الكافور لأنه عَلِم أنها لا تحبه، وهو أيضًا استصعب الكتابة على لحائه، ضرب بفأسه حتى أزال ما يمكن إزالته، كتب الأبيات ناقصةً لأنه ما عاد من موضع للكتابة عليه بحجر الكُحْل...

هذه المرة راقب البيت وربَّه وساكنيه حتى أطلّت حبيبته فألقى باللحاء، ثم ركض مبتعِدا.

وصل إلى حانوت والدها ووقف فيه، أطلّ عليه تاجر دائم التردد، فاستوقفه وحكى له حتى لا ينقبض صدره وربما زال بعض القلق بأن يخرج منطلقا، فأخبره التاجر السقسيني أن يخبرها، فإن وافقت أو استحت أو ارتبكت أو حاولت إخفاء الضوء ما بين شفتيها فعليك بالزواج.

يومها غرق في بحر تفكيره المُغلَق، ما بين فقره وحبه يقبع ويُخبِّئ رأسه وما تحويه حتى استقرّ على الهجرة نحو شالوس غربًا، حيث مرافق أهل الثغور ومحتطَبها، فلربما وافق عمله مزاجهم، فتُفتَح له عين من الحياة، أو ربما يقابل ابنا رستم؛ محمد وجعفر وهما معروفان بأنهما من أهل الفضل فيُغدِقان عليه ما يكفيه للعيْش مع من يُحِب.

عصف خياله بمستقبله فأردى به قتيلًا في بحرٍ من الآمال منحصرة نحو الغرب القريب؛ وما يمكن أن يكون هناك ولا يجده هنا، فأضمر في نفسه أن يُخبِر والداه قرار الرحيل على السحور؛ إذ أن الليلة هي أول ليالي شهر رمضان الكريم.

(02)

أوعيةٌ من الكَرَمِ يطوف بها الغلام على أهل المجلس الليلي كما يطوف الجسم فوق الماء، ولا يتعمّق أو يغرق لخفته الملحوظة أو لِثِقَل أدمغة الجالسين وما حوته من حشوٍ؛ كُنهُه شعر وعلم وتفقّه في أمور الدين والدنيا والأدب والطرب، كان أقلُّهم في هذا وأكثرهم حماسة وإرهافًا للسمع فتىً يُقال له محمد بن تمّام؛ يتّكِأ على وسادةٍ بيضاء، دموعه زهيدة وقلبه صافٍ يحب الشعر كحبه لأهله أو أكثر، روحه مسحورة تتبخّر بكلماتٍ تُتلى ويطرب لها قلبه في كل ليلة في ذاك المجلس، تُشجّعه أمه على حب الشعر علّها تراه يومًا تحت أقدام الخليفة يمدحه فيغدق عليه من بحر نِعمه؛ الشعر حياة بني العباس وشيطانهم ومن يُمْسِك بخيوطهم ويفتنهم ويحببهم حتى ولو في الأشياء المقيتة، منحدرُ الولاة إلى الجحيم ومصعد الشعراء إلى الأمل في العيْش.

كانوا نفرًا لا يزيد عددهم عن العشرة، يربطهم حب الشعر والحكايا والسِيَر، متراصّين مُتزاحمين يتمايلون كدودة قزٍّ يعجبها الحرير فتلتحف به، أكبرهم أبو الفضل يجلس أسفل القنديل الكبير؛ يُضيء المجلس بكلماته كبحرٍ جليٍّ وسط بُحيرات مُغلقةٍ صمّاء. قال:

– كانت طبرستان دائمًا ملجأ للجبابرة والأكاسرة، والآن باتت منزِلًا للشعر الندِيّ، يا للعجب!

قال رجل ذو لحية خصيبة تراه جامدًا لا يهذي:

– وما أدراك يا سيد القوم؟! ربما فضّل الجبابرة مكانًا آخر أو أنهم يختبئون بيننا أو أن هناك كسرى بجبهةٍ تُلامِس الأرض خمس مرات في اليوم والليلة ينتظر الفرصة التي أراها تشكّلت.

أمسك البعض عن همهمة، ومنهم من صمت وتناوب السكون فيما بين البقية، نظر كبيرهم لمحمد بن تمّام وصاح به:

– ألا تُسمِعنا آخر ما حفظته يا محمد؟!

توجّهت الأعين نحو محمد تتفرّس شفتاه وتنتظر منهما النجاة؛ الخوف من الجملة ذات الحدّين تعتريهم وتربكهم وتضع أمامهم مستقبلًا ينتابه الجهل؛ أعداء ما يجهلون يُغرقهم الشعر والذكر والعمل، كأنهم لا يريدون الكلام في ما كانوا يتشدّقون به البارحة، الكوفة وما يحدث بها والانشقاق عن بني العباس والأمل الخصيب الآتي من هناك، كأن الحياة تدبُّ فيهم بالحديث عن الأمل فإذا انقطع –وما يدري محمد أنه انقطع– تحوّل الكلام بين ليلةٍ وضُحاها إلى الشعر مرة أخرى، قام محمد ولوّح بكفّه اليُمنى منبسطًا تعلو شفتيه بسمة قلِقة لا تملك الجرأة الكافية، فأنشد كاذبًا:

بكيْتُ على الشّبابِ بدمعِ عيني
فلم يُغنِ البُكاءُ ولا النّحيبُ
فَيا أسَفًا أسِفْتُ على شَبابٍ
نَعاهُ الشّيبُ والرّأسُ الخَضِيبُ

عريتُ منَ الشّبابِ وكنتُ غضًّا

كمَا يَعرَى منَ الوَرَقِ القَضيب

فيَا لَيتَ الشّبابَ يَعُودُ يَوْمًا

فأُخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

أثنى الرجال على إلقاء محمد وكبريائه وافتعاله الشعور بالمعاني؛ زهوه وحزنه وفرحه وجماله وصوته؛ ترقيقه وتفخيمه وترخيمه:

– كأنّك يا ابن تمّام تُمثِّل المعنى فتخلق له ظلًّا.

قالها أحد الجالسين مع طلاقة وجه وامتنان.

اعتاد محمد كلمات المدح التي اعتبرها كاذبة بادئ الأمر، فمنذ أن كان طفلًا والكل يعجِبه قوله وقوامة لسانه، كان يجلس مع الشعراء فيسمع ويحفظ سريعًا، يفهم الكلمات ويحوط بالمعاني ويشرب الوزن ويتعلّم الجديد، كانت كفّاه صغيرتان حين لوّح بهما في السوق وهو يقول أول أبيات حفظها، فَهِم لغة العيون فقرأها، واستشعل القلوب بكلماته فنامت على أسِرّة بلاغته؛ فذاك يبتسم امتنانًا والآخر يتعجّب حسدًا مقبولا، قرأ كل العيون وما كادت تقوله أو قالته أو ربما تخفيه لولا أن ألجمتها الأبيات والإلقاء والصوت الذي بدا خشنًا والعزّة التي اكتسته فارتداها على عجلةٍ من أمره كأن ساعة الحياة قد أوشكت على الانتهاء، لكن العينين الوحيدتين اللتين لم يستطع قراءتهما كانت عينا عبد الله شقيقه الأكبر، كانت صافية غير لامعة ولا عابئة بما يُقَال، لكن محمد لم يأبه للأمر وتولّى إلى حيث وجهته التي أحبها وأعطته كل ما يريد غير واحدة.

انجرف الحديث ليلتها عن الغناء كما هي العادة، أخبرهم كبيرهم أنه سمِع الحُدَاء من أهله حينما كان في مكة العام الماضي، وعرف كثيرًا عن إبراهيم الموصلي –رحمه الله– رئيس المطربين، انتبه محمد وسأله الاستزادة، فلم يكن من الكبير أبي الفضل إلا أن أخبر محمد والجالسين من حوله أن إبراهيم كان نابغة بالفن والطرب، وكان صوته عذبًا وألحانه تجعلك كما الطير سكران تتخبّط من غير خمر.

سأله أحد الجالسين عن ابن جرير الطبري: أحواله وأخباره؛ كأنه يُحوِّل دفة الحديث إلى ما يعجبه التحدُّث فيه.

فأجاب أبو الفضل:

– محمد بن جرير قد ذاع صيته بين العلماء، هو الآخر نابغة في علمه وقد جربتموه صغيرًا بينكم.

سكت أبو الفضل هنيهة، ثم قال وكأنه اكتشف أمرًا جللًا:

– تعلمـــون؟! وجدت أن هنـــاك وجـــه شبه بين ابن جرير والموصلي.

استنكر النفر ما قاله الكبير، وتسارعت الهمهمات، وانقطع السكون مع خفوت القنديل الكبير شيئًا فشيئا، لكن الكلمات استثارت محمد، فقال وعيناه قد تولّت عنها الغفلة:

– أكمل يا سيدي، ما وجه الشبه؟!

أجاب الكبير يُكلِّم محمد وحده:

– الري؛ مدينة الري يا محمد، فيها تعلّم ابن جرير وفيها تعلّم الموصلي، فيها العلم والفن معا، إذا أردت أحدهما فاظفر بالسفر لتلك المدينة، ولا أرى إلّا إياك في هذا الأمر!

خرج محمد ليلتها، وذهنه مسنون بفكرة السفر، وأضمر في نفسه أن يُخبِر والديه قرار الرحيل على السحور؛ إذ أن الليلة هي أول ليالي شهر رمضان الكريم.

(03)

يُقال أن آمِل لا يوجد بها ثعابين ولا عقارب ولا فهود ولا سباع ولا حشرات مؤذية، ولكن بها سيرين الرقيقة التي استحالت ثعبانًا ينفث السُمّ في وجه من أراد بأولادها شرّا ولو كان والدهم؛ هي من أقنعت تمّام بضرورة عمل ولدهما عبد الله، سيرين تحب الأسْوَد من الملبس تخيطه بنفسها وتُعيد دومًا قصة زواجها وكيف كانت مع تمّام في بادئ الأمر كالقطة التي استجلبها ربّ سفينة كي تُسلّيه، لكن السفينة كانت على وشك الغرق فبات الربُّ ضاربًا بزجاجات الخمر ليلًا وسيرين بقيت بنفس جلد القطة لكنها استفحلت فهدًا يُسرع لإنقاذ السفينة؛ فأنقذتها.

تسرد على ولدها الأصغر يوسف صاحب الاثني عشر سنة كيف أنها اقترحت يومًا أن يذهب تمّام للسوق فيشتري لها أقمشة وهي تخيطها ليبيعها بعد ذلك، وكيف أن تمّام بغيابِ عقلٍ اشترى لها الأردأ، استشاطت غضبًا، وذهبت للسوق توبّخ التاجر فجاءها المخاض وهي على عتبة الحانوت، وجاء يوسف وجاءت معه الهدايا من صاحب الحانوت.

سيرين؛ يليق بها الحياء لكن الدنيا وما تضمر لها ابتاعت بعضًا من الحياء مقابل ما تبقّى من قوة، والبعض الآخر خزّنته في قلبها حتى اختفى بين الرُكام.

كان تمّام قاسيًا معها ولكن الفقر أضعفه، فصار يتجنّب الحديث حتى لا تضرب بلسانها كل شيء كرهته يومًا في زوجها، والحياة.

استيقظت تُحضِّر السحور لأبناءها الثلاثة، اجتمعوا على المائدة الأرضية وقد أضمر الأخوان عبد الله ومحمد أن يُخرجا ما ظلّ مُختبِئًا طوال الليل.

جلس يوسف بجانب أمه، وفي المقابل عبد الله ومحمد، أما الأب فكان على رأس المائدة رأسه تتدلّى على الطعام، والسكون يعم البيت لا يقطعه سوى نقر يوسف على كتف أمه لتناوله بعضًا مما قصرت يداه عن الاتيان به.

ابتلع عبد الله آخر لقمة كانت في فيه، فاضطرب قلبه واشتعل حماسه، وأحسّ كأن دماءه تتدفّق جرّاء قرار منه أن يتكلّم.

لاحظت الأم أن ولدها الأكبر لا يأكل فنظرت له مُشفِقة عليه وهي تقول:

– لِمَا لا تأكل يا عبد الله؟!

– الحمد لله يا أمي، الأكل طيب والنعمة كافية.

خطف تمّام نُظيرَة ثم أشار ليوسف أن يناوله الماء، عَمِل عبد الله على تجاوز النظرة لِمَا يدري ما تحويها من احتقار وعدم إعجاب بأية كلمة تخرج منه هو بالذات؛ كأنّ الولد في معركة مع والده المغلوب على أمره لضيق يديه.

بسط عبد الله يديه وكأنّها تشمل الكلمات التي أراد النطق بها، تشجّع أخيرًا وقال:

– أريد أن أُحدِّثكم في أمرٍ هام.

سكت الجميع ونظرت سيرين لزوجها حين أردف عبد الله:

– أريد أن أسافر.

وعندما وجد سيرين لا ترد، فقط تنظر لتمّام تراقبه فأكمل:

– سأعود، كل ما في الأمر أني أردت الزواج، السفر لشالوس القريبة والعمل هناك في محتطب أهل الثغور سيفيدني، وربما أكتسب كثيرًا من المال الذي يضمن لي العيش.

تفاجأ محمد بكلماتِ شقيقه الأكبر، فقرّر ألا يتحدّث فيما عزم عليه، وأوجب على نفسه السكوت لحينٍ لا يعلمه.

نظر يوسف الصغير لأمه وسألها كعادته:

– لماذا يُسافر الناس يا أماه؟!

أجابت سيرين وهي لا تزال تنظر لزوجها تستشف منه أي رد أو شعور طفح على وجهه:

– الناس تُسافِر لأنها لا تجد قيمتها في مكانٍ هو الأجدر بها.

ثم توجّهت بكلماتها لعبد الله قائلة:

– أنت هنا تعمل يا بني، تجمع من المال ما يكفيك، أما نفقات الزواج فعلى الآباء تحمّلها، فالسفر ليس لك و إنما أظن والدك لن يرفض فكرة السفر، فهو لا يزال يعشق السفر كما كان قديمًا، أليس ذلك يا تمّام؟!

(04)

في الصباح خرج عبد الله من بيته وقد أصاب وجهه الإرهاق، يشهق راحة ويزفر غضبا، يقتل هواه الذي أرداه لفكرة السفر، ما حدث على السحور كان مغايرًا تمامًا لِمَا أراده، لا يلوم نفسه وإن لامها وقع في شِباك العشق فخلق له الأعذار، من مصلحته السفر حتى يعمل، أو يجلس كما هو الحال حتى يبقى بالقرب منها، مضى عبد الله إلى السوق غير آبه لسلامات الحلّاق وبائع القصب وتاجر الأقمشة وغيرهم، وصل فوجد الحانوت مفتوحًا على غير العادة، نسِي لوهلة بيته وحاول استجلاب ما حدث البارحة، هل ترك الحانوت مفتوحًا وذهب؟! إن كان ذلك ما حدث فلا يلومن إلا نفسه، وإن لم يكن فالمصيبة أعظم.

أسرع ناحية الحانوت، دخل، استرق النظر، فوجد اللحاء الذي كان قد كتب فيه أبيات الشعر مبسوطًا على الأرض... عيناه على القصيدة المنثورة، حتى تأكّد أنها هي، من أتى بها؟!

خرج محمد من البيت صباحًا على صوت صديقه جعفر وهو يناديه:

– خيرًا يا صديق؟!

– أسرع يا محمد، فقد وصلت أبيات جديدة مع السفن القادمة من سقسين.

خبّأ لهفته المُتوقِّدة سلفًا وقال:

– من أين؟

– الكوفة.

– إذًا، أنشد!

– قتلت أعز من ركب المطايا، وجئتك أسْتَلِينُكَ في الكلام...

وعَزعَلَي أن ألقاك إلا، وفيما بيننا مَدُ الحسام...

ولكنَّ الْجَنَاحَ إذا أهيضت، قَوَادُهُ يَرِفُّ على الأكام...

سكت محمد قليلًا وكأنه ينتظر سماع المزيد، فأنبأه جعفر أنه انتهى، لم يتعجّب محمد وقال:

– أعِد عليّ ما قلته.

ففعل حتى حفظها محمد، ثم نظر إلى وُريقات الشجر الذابلة على الأرض، التقط واحدة وعصرها ما بين يديه ثم تركها للرياح، قال:

– الحزن مُتجسِّدًا مرة أخرى، قيلت في من؟!

– يحيى بن عمرو الذي خرج بالكوفة.

– تقصد، من وصلت أخباره إلى هنا؟!

– نعم، هو.

– يحيى الرجل الذي بايعه الناس وأحبته، قُتِل؟!

– نعم، جدّ محمد بن عبد الله بن طاهر في إرهاقه، وبعث إليه من يقتله.

تذكّر محمد البارحة الرجل ذا اللحية الكثيفة حين قال قولته من كسرى جديد يُصلّي الخمس، وتكتمت الأفواه بعدما كانت تتفتّح بآراءها كزهرة ربيعية، كانوا يقولون عن يحيى بن عمرو إنه أمل الأمة في الخلاص من حُكْمٍ أصابه العجز، ويكفي يحيى أنه يحب آل البيت، تصلنا أخباره في المجلس؛ ولا نسيَ عندما حكى لهم أحد التُجّار أن يحيى بن عمرو خرج لضيق اليد في بادئ الأمر، فلما بايعه الناس ووجد في نفسه القوة أن يعود بأمر الخلافة إلى دربه القويم آمَلَ أن يستتب له الأمر وتخضع له الأمور وأصحابها، فلما قويت شوكته قال له أهالي الكوفة:

– لقد غامرت بمثل هذه المغامرة لضيق اليد ونحن نفديك بالأموال، فاقعد عن هذا الأمر حتى لا تشتعل الفتنة.

فأقسم بالطلاق أنه لم ولن يخرج متعصِّبًا؛ لأن دين الله قد أزل وأحكام الشريعة قد نُسِخَت وسوف يمضي بهذا الأمر حتى وإن قُتِل في سبيله، كان كثير التعطّف والمعروف على الناس، أحسّ محمد أن يحيى يُمَثِّل له الأبوة المرجوّة، فيحيى كان في مثل ظروف والده الحالية، لكن الفارق كبير، البارحة كانوا يتحدّثون عن الشعر كعادة أيام الصمت؛ وهكذا هو الأمل؛ نقيض الشعر.

خرج الوالد لحظتها من البيت، شفتاه غاضبة مشقوقة، قامته فيها انحناءة شجرة تُحرّكها الرياح أنّى شاءت، من خلفه كان يوسف الصغير يحمل حاجيات والده التي قد يحتاجها في سفره اليسير للغرب القريب؛ نحو شالوس بدلًا من ولده الأكبر.

(05)

استأجر تمّام فرسًا لمدة يوم أو يومين، توجّه من آمِل ناحية الشرق بعد أن أقنعته سيرين وأوجعته بقولها

– ضاق البيت بنا يا أبا عبد الله.

يُودِّع أيامه بما فيها من وديان هبطت به من بعد حُب، وجبال يراها ولا يمسّها بعد رقصِهِ على قمتها، وغيوم لا تسقيه عذبًا ولا عذابا، وبحر كان يحلم يومًا لو يرى ما فيه ويصل لِما يلتحف به كل ليلة من حدودٍ للأفلاك ومرمى النجوم.

كان في شبابه تاجرًا بارعًا ينتشي بالأموال ويحوط بها من جميع الجهات، لكنه كان يؤمن بأن المال جاء ليذهب؛ يصرفه في ملذاته ويبتهج بشهوةٍ رجولية تميل إلى النساء والشعر والمعازف والطرب، كانت مجالس بغداد تعرفه، والخمر في الطُرقات الضيقة تغسِل دماغه وتُنسيه ما كان، لا يُفكِّر سوى في اللحظة الراهنة، يحبس قلبه وفكره وناره المُنيرة وضجره وأحزانه الكبيرة وسط أربعة جدران من الضباب، لا يرى لكنه يخطو نحو كل ما كُتِب له.

أقدم على الزواج جرّاء نصيحة أمه، اختارها رقيقة شاردة كزبد البحر، كان يغيب عنها لكنه لا يرفض لها طلبا، أحبّها فامتنّت لذلك حتى وطأ عيْشه الكدر والخسارة، لم يعد السوق سوقه ولا الأموال

تأتي، تجلّت في عينيه الحسرة على أيامٍ مضت تشكّلَت فيها ألف ألف فرصة كجواهر تنتظر من يقطفها لكن البرودة أصابته فاحتضن سوء التدبير، ساعدته سيرين فانكسر أمامها، ومضى في طريق الضعف وربما أحبه لكسله، تأمّل نضج تلك المرأة وتسويتها للأمور على مرّ الزمان، وفيما كانت هي الحاكمة لبيت الزوجية كان هو يحبو خلفها كأنه يتعلّم من جديد، لا يدري متى استدارت ولا كيف تعلّمت أمور الحياة وخبرت الدنيا وما تحويه، لكنها كانت ولا تزال تنظر لِما هو قادم وتعمل له كعروسٍ تتزيّن لزوجٍ ذي رائحة كريهة، وها هو الآن بعدما كَبِر الولد وأراد أن يعمل على الفرص التي لم يقتنصها والده يمضي في طريقه لتلبية طلب سيرين؛ **ضاق البيت بنا يا أبا عبد الله**.

مضى في طريقه بين أشجار الكافور يتأمّل نضجها وخشونتها، وحيدًا رغم العائلة التي كوّنها بعد صمت الأموال وبُعدها عنه، وما كان يدري أن قطف الزهور يُعجِّل بموتها.

كفّ عن ذكرياته التي توجِعه وبنى لها معبدًا في قلبه يزوره كلما أحسّ بالضيق أو وجد نفسه وحيدًا كعمودٍ أصابه العوز لآخر يسنده.

لن ينسى سيرين وما فعلته، سيرين القوية في موضعٍ كان يجب أن يكون هو فيه، ضرب فرسه وترك جسده لنسيم خريف طبرستان؛ خريفها كالشتاء والربيع إذا اجتمعا، الشتاء بقوته وتحنانه حين يُمطِر والربيع بنسيمه وجماله حين تشرق الشمس؛ كسيرين.

وعندما خرج من آمِل وابتعد عنها بُعْد المقهور، نزل عن فرسه وأسند ظهره لصخرةٍ آوته، ثم بكى.

(06)

عندما تجلّى يوسف في آمِل أشْهَرَت أمُّه سلاح الذُّعر؛ تخاف عليه من قبضتها، تُشفِق عليه من اللعب إن زاد، ترمي بأطراف عينيها إلى كل ما يحوطه وتُلجِمه عن التعامل مع أي شيء قد يُحدِث له ضررا؛ ولدها الصغير التي تتمنى لو كانت حياته أفضل من الكل؛ فمنعته عن كل شيء.

نشأ مُتعلِقًا بأمه زاهدًا في أوامرها، هي بالنسبة له كرسالة حُبِّ من الواجب حرقها، كلما كان يكبُر كان يحاول توسعة ما يعيش فيه من ضيق، أحبّ والده فقلّد خطوته وسهره وانحناءة ظهره، وقلّد عبد الله في عمله فكان يقتلع الحشائش بعدما جرّب اقتلاع الشجر ووجده غير صالح لهذه المهمة فتركه لتنمو براعمه في أمان، سمِع الشعر من محمد ووعاه في السابعة فتعلّم الكُرْه والضجر وعَرِف القدر وسأل؛ ما الجحيم؟! من يستطيع أن يشرب الشمس؟! كيف نلعب مع الريح ونتكلم مع الغيم وننتشي بالكلام إذا كنا غير مُجترئين؟! ازاداد خوف سيرين عليه فكانت تحتضنه وتكتم عويل قلبها، أحبّ الخبز وتفرّسَه ونظر لخمر والده من بعيد وما كان يقترب، كان يُعطي حياة جديدة لكل شيء فيُسمّي الفرس ويلومه لو لم يصهل، يمارس وحشيته على النباتات كأنها زوجته، يعاقب نفسه بمحاولة انتزاع أظافره إن لم يستطع رؤية الجمال في عصفورٍ صغيرٍ يتألّم، كانت عيناه غريبة وعاكسة وصافية ولامعة وقوية وخائبة كترياق سماويّ.

في الآونة الأخيرة شغله سؤال واحد: لماذا لا يتوقّف العالم عن حركته، وكيف؟!

كان لا يمل من السؤال ولا يرى الإجابة ولا تُقنِعه ردود سيرين ولا تمّام ولا عبد الله، فقط كانت أجوبة محمد تُعجبه لكنه كان يَضِنّ بها عليه، ويقول له دائمًا:

– كفاك أسئلة يا يوسف، ما الذي ستفعله بقية حياتك إن عرفت كل الإجابات التي تحتاجها؟!

(07)

أُذِّن لصلاة العصر في المسجد القريب، صلّى محمد خلف الشيخ الكبير أبي الفضل، ثم جلس العامة من كبار السن والأطفال حول الرجل ومن بينهم محمد الشاب الوحيد الذي يحسده العامة على قُربه من أبي الفضل.

ويوسف يدور حول الحلقة يتفرّس في العامة يتوسّل في أعينهم إجابة لأسئلة تراوده على صغر.

تنحنح أبو الفضل علّ السكوت يتم، وقال:

– أخبروني عن السادة العلوية؟!

قال أحدهم مُتفهِّمًا ما يرمي إليه السؤال:

– هم والله أزهد الناس.

أكمل من بعده عجوز تألّم صوته لمُضي السنين بلا عمل فوهن:

– وأعلم وأورع.

أكمل أبو الفضل ختامًا وتزيينا:

– لعلّي أظن أن نهج المسلم الحق هو ما عليه السادة.

سأل أحد المارّة على المجلس وكان في صوته حِدّة:

– ولكن يا أبا الفضل، لا ينفع الزهد والورع وحده في تدبير الأمور، أعلم ما ترمي إليه وما يختلج بنفسِ كل أحد هنا وفي أي مكان من بعد مقتل يحيى بن عمرو وتفرُّق السادة في البلاد، لكن أتريدنا نحن الذين لا حول لهم ولا قوة أن نفعل هذا؟!

ردّ أبو الفضل بسرعةٍ وكأنه ينتظر تلك الكلمات لتنتهي:

– أترضى أن يأخذوا أرضك كما أخذوا أرض شالوس وكلار؟! إن كنت ترضى فاجلس في منزلك حتى يقتطع بنو العباس الجزء الذي يعجبهم ويعطوه لابن طاهر لأنه قتل واحدًا من آل البيت!

قام عجوز يستهزئ ويسُب:

– خيّبك الله و أفقرك يا أبا الفضل، أجمعتنا لنتحدّث في بديلٍ للسادة بني العباس؟ أأنت في كامل وعيك يا رجل؟ أم أنت من أعداء الله؟!

تعجّب الحضور ووقفوا لوقوف العجوز تارة يهدِّئونه وتارة يستجلبون العلّة من جمعهم هذا من فم أبي الفضل.

فأكمل العجوز:

– كنت أظنك أعلم من هذا بالأمور وكيف تسير، ربما ينفعنا أحفاد آل البيت في الحكم تحت الخليفة البغدادي، لكن أن تفكِّر في خليفة آخر، أنت مجنون بالفعل!

ثم وجّه كلماته للجميع وصرخ:

– كلكم مجانين وسوف أسافر للأمير سليمان أشتكي منكم أيها الخوارج.

انصرف خارجًا وهو يصرخ فيهم بأقذع الكلمات.

كان يوسف يُراقب الموقف من أوله فاقترب من محمد وسأله خافتًا:

– من هم السادة يا محمد؟! أهم الملائكة؟!

أشار له محمد أن يصمت، بعدها تكلّم أبو الفضل ليهدِّئ الأمور قليلًا فقال باتِّزان:

– كلكم تعرفون أن الخليفة أراد أن يكافأ محمد بن عبد الله بن طاهر على نجاحه في القضاء على خروج يحيى بن عمرو الطالبي ومقتله فمنحه بعض المناطق من صوافي السلطان بأرضنا.

أمّن القوم على هذا الأمر، ومنهم من ضرب كفًّا بكف، فأكمل:

– لكن نائب ابن طاهر لم يقتصر على هذه المناطق في كلار وشالوس، ولكن امتدت يداه إلى الأرض الموات التي فيها المرعى والأشجار التي يأكل منها الأنعام ويعمل بها الحطّابون، فكان ظلمًا وعدوانا.

وقعت الكلمات على رأس محمد فرقد في جانبٍ مُظلِم من التفكير في مستقبلٍ مجهول، الأرض التي كانت ستُنقِذ الأسرة من فقرٍ مُحقّق،

وستكون فاتحة خير له؛ إذ من الممكن أن يسافر في القريب بعد عمل والده هناك؛ كل هذا فجأة دُفِن بين أجداث طمع الوالي ونائب الوالي ونائب نائب الوالي المُؤتمَن.

انتبه محمد لِمَا وقع عليه، وقرر أن يُسرِع ليُخبِر أمه بالخبر، لو جاء منه لربما يهون من لو جاء من والده؛ فالوالد قد انعدمت الثقة فيه من جانب سيرين، وما عادت تعمل حسابا لخيرٍ يأتي من جانبه، قام محمد وبحث عن يوسف فوجده جالسًا بجانب أبي الفضل يستمع له وهو يقول:

– وعندما يصل الرسول إلى مدينة الري، ويُخبِر الحسن بن زيد بما يريده العامة لربما يقوم للعدل قائمة على يديه، فمن منكم يبايعه إن أتى وطلبها؟!

فأشار القوم إلى أنفسهم بأنهم جديرون بهذا الأمر، وأنهم في انتظار موافقته.

نبّههم أبو الفضل ألا يتحدّثوا في هذا الأمر في السوق حتى لا يصل للأمير، حتى لا يُقضى على الأمر في مهدِه، أما عن العجوز الذي ثار فإنه لا يزال لا يعرف من يطلبه الناس ليبايعوه، فقد طلب ابنا رستم محمد وجعفر من غيره المبايعة فأشاروا جميعًا إلى الحسن بن زيد في الري.

ثم نظر إلى محمد بن تمّام قائلًا:

– الري يا محمد مرة ثالثة.

نظر محمد نظرة العارف الآمِل، الري تُذكَر كثيرًا وكأنها تناديه، وسفينة الظلم قد أوشكت على الانهيار بفعل الري وما حوته بفعل الأزمنة من علمٍ ولحنٍ جُمِعا فأوجدا التمرُّد.

عدا يوسف الصغير نحو باب المسجد إذ تهلّل وجهه عندما رأى والده يدخله ويُلقي عليهم السلام.

(08)

كانت هند هي من أتت باللحاء وراقبت عبد الله وعرفته وهو يركض، ذات أعين واسعة تحب من يخبرها بجمالها، وقدٍّ ذا ينابيع بوجهٍ حسن، وقفت أمام عبد الله في الحانوت تستجلب منه الخجل، اعترته اللعثمة وأحبّ النظر لزوايا الحانوت فجأة، بعدما كان يتطيّر من اليوم الذي لا ينظر فيه إلى عينيها من بعيد، سمع صوتها وهي تقول همسًا كرياح الليل البهيم:

– كيف أنت اليوم؟!

خطف نُظيرَةً لها ثم تولّى الأرض بعناية، ثم قال بالهمسِ الذي استلهمه منها:

– أصبحت أحسد مصيري الذي جاء بي إلى هنا وأهداني صوتا أحبه.

دقّ قلبه، رقّ عظمه فما عاد الصحو يحمله، انحلّت عُقدة الزمن ببطءٍ حين اقتربت منه وأشارت إلى اللحاء قائلة:

– أبيات جميلة، وخطك أيضًا!

نظر لوجهها في ما بين الحجاب فاخترقت قلبه المتوجّع.

– كنت أريد أن أقول شيئًا من روحي الذليلة، فكنت كمقامر عنيد لا يُعلَم له حظ.

– الحظ حليفك يا عبد الله، أنا ذاهبة.

– إلى أين؟!

اندهش عبد الله من قوله الثائر على حدود الحياء، نعت نفسه بالغبي لو ظنت أنه يتحكّم بها، تخلّص من هذا وقال:

– إذا أردتِ شيئًا فأنا موجود.

– ذاهبة إلى مكان أحبه؛ إلى جبل دمافند، فالثلوج قد بدأت في الاندماج مع الصخور، أحب النظر إليها.

تحرّكت هند نحو باب الحانوت وهي تقول:

– لا تنسَ أن تُخفي اللحاء.

ظلّ عبد الله واقفًا وكأنه عاد من الصلب للتو، وقفت هند على الباب وأدارت وجهها وقالت باسمة:

– عبد الله، هل تركب الخيل؟!

هزّ رأسه نافيًا علاقته بالخيل.

– صديقتي لن تأتي معي الجبل، ولا أحب أن أكون وحدي، ومعي فرسان بالخارج، ألا تحب ثلوج جبل دمافند؟!

هزّ رأسه نافيًا علاقته بكل شيء عدا الخيل.

(09)

عندما عاد تمّام ومن خلفه محمد وبجانبه يوسف كان قلب الأول هزيلا ذا عاصفة مُظْلِمة لا تقطعها الشموس، رحلته لم تدُم طويلًا حتى أخبره أحد العائدين من شالوس أن الأرض التي يقصدها قد أخذها نائب محمد بن طاهر عنوة، وتضايق أهل الثغور من هذا الأمر وربما تقوم حربًا لا يعلم نتائجها إلا الله، فما وجد نفسَه بين انكساره وغضبه إلا وهو عائدٌ بخيبةٍ جرّبها مرارًا فاعتادها واعتادته، أما محمد فقد خَرِبَت آماله وتسبّبت في رعدٍ ومطر يُوصَم بالعذاب المستقبلي، أما عن يوسف فلم ينتظر تورّد وجهه بعودة والده السريعة حتى هبّ خريف أفكاره؛ تراوده الأسئلة كما العادة ولم يجرؤ على البوْح بها لِمَا رآه من حزنٍ حبيس العيون.

وفي هذا الجو العائلي رأتهم سيرين من بعيد؛ كانت تقف على الباب كزهرة سوداء تتحدّى نفسها وقدرتها على العيْش؛ هربت من أرض الفؤوس وساحت بأرضٍ مغسولة فعادت بين رمال السواحل أكثر سوادًا تنتظر الموج ليجرفها بعيدًا بعيدا.

رأتهم من بعيد وحسبت كل ما ظنّته بزوجها؛ انعدام الفائدة وانكسار الروح وألم يلتهم حياتها وعدوٌّ غامض يقضم ما تبقّى من قلبها، نظرت للسماء تُعاتِب نفسها على قدرٍ ينمو ويقوى بما تفقِدُ من دماءٍ وحياة.

الأموال تنفذ والفقر باقٍ والعائلة لا ترحم، كادت تدخل وتصفق الباب في وجوههم لكنها آثرت الشجاعة ورفْع العبء الثقيل وامتلاك الجسارة النبوية، فانفلتت منها دمعة بشرية أنثوية ذات فنٍّ زيّن وجهها بالحزن وزمنٍ قصير حتى لا يراها ولداها.

اقترب تمّام وقد علِم تمامًا ما اختلج بقلبها، فصنع زاويته مع الأرض الخاصة به والفراغ وانحنى كأنه يقترب من مقبرةٍ معزولة.

دخلت سيرين ووقفت في فناء بيتها تنتظرهم، دخلوا بعدها وكان البادئ يوسف الصغير، احتضن والدته وأحسّ بأنه فأس بشرية تعمل للحفر عن الأم بين أحضانها.

نظرت الأم ناحية محمد وقالت:

– خذ يوسف يا محمد إلى الداخل، أريد والدك في أمرٍ هام.

تدخّل محمد علّ نظرات أمه تنفك فقال:

– أمي، الأرض استولى عليها الـ..

– إلى الداخل يا محمد، إلى الداخل.

دخل يوسف ومن خلفه محمد غرفتهما، يقفز يوسف على السرير ويتوجّه بالسؤال:

– لِمَ لا نهاجر كلنا معًا يا محمد؟!

أجابه وهو يرهف السمع ناحية الخارج:

– لأن كُلًّا منّا له وِجهته.

– ولِم لا تكون وجهتنا واحدة؟!

صمتٌ تجلّى بعدها إذ أن محمد يُنصِت لِما يُقال بالخارج وفي رأسه ألف حبكة زائلة زائفة عن ما يمكن أن يحدث لخروجه وإعلان قرار الرحيل الذي اتخذه، لكن في هذه الظروف لا يصح له قول، ولا يسلم له ردّ، فآثر عدم الخروج مهما حدث.

راقب يوسف نظرات محمد اللاهثة نحو أمواجِ بحرٍ لُجّي الباحثة عن أمانٍ مفقود، وقال:

– أتمنى لو أعرف كيف يقف الزمان والحركات والسكنات، لكنت أجمعكم بالقوة وأجعلكم تبتسمون رغم كل ما يمر بكم؛ فأنا أحبكم.

(10)

– إلى متى ستظل هكذا؟!

قالت سيرين والغضب يغوص في أعماقها ويخرج مُتنفِّسًا على قسمات وجهها، يرد عليها تمّام وهو في صورة من أراد العناق طوال حياته فلم يجده، يحبِس البكاء حين يقول:

– والله لو عرفتِ أن القدر يعاندني ما عاتبتني بنظراتك هذه.

– عتـاب؟! انتهى زمـن العتاب يا تمّام، المرء منّا له طاقـة، مـا من أحدٍ يسبِر أوضاعك أو يعرف مهاويك، كم مرة كانت الدروب أمامك مفتوحة واخترت سُبُل الضياع؟!

صمت تمّام قليلًا، انتفخت أوداج سيرين وهي تصرخ به:

– رُد عليّ، كم مرة؟!

اختلطت الدموع بشعيراتها المنثورة فوق وجهها الغاضب، تلجلج تمّام في كلماته وأفكاره وأحداثه:

– كنت شابًّا، الشباب تجارب.

– وتجاربك كلها كانت فاشلة، وجررتني كما البهيمة فيها.

قالتها بصوتٍ مبحوح، استغلّ تمّام ضعفها فأسرع يقول:

– أنتِ كنتِ معي، لو لم تكوني قوية عليّ كاليوم لكنتُ.

بترت كلماته بقولها:

– كنت معك ضعيفة فما نفع، وكنت قوية أرجو فيك منفعة لأعود لنفسي وبيتي وما نفع هذا أيضًا، أنت لا تصلح لشيء.

قالت كلمتها الأخير بصياحٍ حاد، فردّ عليها يُهدِّئها:

– لماذا هذه الجلبة في شيءٍ غير نافع وليس بيدي؟!

– ليس بيدك! إذًا بيدِ من يا ربّ البيت؟! بيدي أنا؟!

رفعت كفاها في وجهه وأردفت:

– انظر ليدي اللتين تشققتا جرّاء الزرع والتربية، وإمساك فأس الرجال، وتعليم الأطفال والخياطة، والصراخ ليل نهار في هذا وفي هذا؛ حتى يستتب الأمر لك وتأتي الفرص التي تُضيِّعها دائمًا، دائمًا، دائما.

كادت تنهار حتى سمعت وقْع أقدام سريعة تقترب من الباب، دقّ الباب عبد الله فسحبت دموعها حتى لا يرى فيها الضعف الذي ضعفت من تخزينه بانتظام.

عندما دخل عبد الله تفاجأ بوجود والده، أوليست سيرين من قرّرت الإبقاء على الابن وسفر الأب للغرب القريب كي يعمل؟! ما الذي يحدث؟! تباينت الأحداث في رأسه لكن عمل قلبه لم يكن لينتبه إلى

دموع أمه أو ارتباك أبيه أو غياب حركات يوسف وتساؤلاته في البيت، كان اللقاء الأول عند الجبل مع هند يُغطِّي على أي شيء ولو كان ظاهرًا للعين الناعسة، الأمر لا يستحق، كل الأمور لا تستحق مقابل أمر هند؛ حبها من أنبت في رأسه فكرة السفر والعمل وركوب الفرس والوقوع من فوقه مرتين وضحكاتها العالية وبسمتها الوضّاءة.

ضمّت سيرين حاجبيها على حاله الذي يثير العجب في النفس، كل ما يحدث جرّاء كلماته وإرادته، أكانت مُخطِئة حين وافقت على عمله في الصغر وعدم تركه للعب كما الصغار، العَوَز ليس فيه اختيار، ارتبكت قليلا من بسمته الواضحة، خافت عليه الحسرة وكرهت ما فيه من انشغال بدنيا زائفة، زاغ بصرها قليلا وقرّرت في نفسها التفهُّد لآخر رمق في حياتها لإنقاذ هذه الأسرة وربّها مما لا يُحمَد عقباه.

– سوف أسافر أنا، سأذهب لابني رستم وأحكي لهما ما حدث. إن أتى القول من امرأة قوية سيكون له الجانب الأفضل والحث على الفضل من لو فعلها رجل ضعيف.

كانت تتكلّم بهدوءِ التي أصابتها العاصفة فلم تترك لها خيارا.

انتبه تمّام لكلماتها بينما اندهش عبد الله فأردفت:

– ليس أمامنا إلا هذه الفرصة.

– تتحدّين إرادة الوالي، وتذهبين لمن يخططون لمبايعة رجل غير الخليفة.

– الوالي هو الله يا جبان.

لأول مرة تخرج هذه اللفظة من فمها، أثارت بها ما تبقّى من كرامة تمّام فصاح بها:

– إن خرجتِ فلا تعودين.

– إن عدت ظافرة فسأبني بيتًا مقابل هذا البيت، وسآخذ أبنائي للعيش فيه.

غلا دماغ تمّام من أثر الجمرات التي تلقيها سيرين من فمها.

– إذًا، اخرجي الآن وبايعي من لا حول له ولا قوة، وشاهدي كيف يُقتَل كيحيى بن عمرو، لمجرد أن الأمل خلق لكِ وهمًا أن الأرض ربما تعود فنستنفع بها.

لم تنبس سيرين، خرجت، الشمس تغرب من خلفها، والصوم سيطول لها ولأبنائها، لم تبكِ، لم تنفعل، ذهبت تجاه بيت والدها، ستُجهّز نفسها لسفرِ يومٍ وليلة؛ علّ في ذلك رحمة بها وبمن تعول، أما عن تمّام، فلم تعُد تُفكّر في هذا الرجل؛ فقد فاض بها قلبها وما عاد لهمٍّ يتعلق بهذا الاسم من مكان.

خطت سيرين بقوةِ الذي لا يأبه لشيء، وكانت بالفعل لا تشعر بأن هناك من يركض خلفها يبحث عنها؛ يوسف الذي تسلّل من البيت عندما علِم أنها راحلة، يركض ليسألها لِما فعلت هذا؟! لِما لا يتراخى ذاك المُسمّى بالزمن أو يستكين أو يتوقّف تمامًا لنلحق القلوب قبل موتها؟! يركض يوسف وقد تاه وسط دروب آمِل، نظر فإذا بصخرة كبيرة بالقُرب منه، حاول تسلُّقها لينظر من علٍ علّه يجد أمه أو يعرف طريق العودة.

تسلّق بصعوبة حتى ما عاد سوى آخر خطوة، لا يرى قدمه وأين موضعها القادم، حاول البحث بقدمه عن موضع قوةٍ ليضغط عليه فيرتفع لأعلى الصخرة المُدبّبة، الوقت يداهمه والظلام وشيك، طفلٌ مثله لا يهمه سوى نتائج ما يفعله لكنه يجهل الأسباب، وضع قدمه اليُمنى على موضع قوة بينما انفلتت قدمه اليُسرى فتهشّم وجهه لالتصاقه بالصخرة، بكى خوفًا حتى ما عادت قوة يديه الصغيرتين تحتمل الإمساك بالصخرة، ظلّ مُمْسِكًا بنتوءاتٍ تؤلم يديه، ما عاد يحتمل، ما عاد غير الصراخ والبكاء، لا أحد لا أحد، لِما لا يتوقّف الألم، انزلقت إحدى يديه، وقع بعدها من فوق الصخرة فاقدًا للوعي.

(11)

جلس محمد في غرفته والليل يلعب على أوتار حيلته في السفر؛ يُخرِج أفضل ألحان الحنين إلى ما وراء جبال ألبرز، مدينة الري أو الكوفة أيهما أقرب إلى تزيين الشعر وأهله، لم ينطق محمد شعرًا حتى الآن؛ ينتظر الإحاطة بما جذبه في نظم القوافي ودناءة المعاني وتكدير عاصفة الأوزان بجوار قُليبِه الهزيل.

يحب أمه ولا يكره أباه ويعرف أن الخلاص في التماسك كما الطوب والآجر وما بينهما مِلاطٌ يُغرِق المرارة في وحل الحياة حتى لا تكاد تتنفّس؛ فتموت وتحيا المودة حتى ولو بين بين الهم.

قام ابن تمّام الأوسط يخطو في الغرفة حتى يصل إلى الحائط، يرسم عليه امتدادا أفقيا لِما يجوب خيالات عقله من مبانٍ متراصّة في الري، أو مساجد مزخرفة في الكوفة، أو مُهنِّد يلمع فيما بين الشمس والأرض التي تقطر دمًا لتروي عرش الخليفة المتعطّش لبيتِ شعرٍ يُثبِّته.

يرسم بيوتًا من طابقٍ واحد يُشبِه بيته هنا في آمِل أو بيته المرجو في الحجاز أو ربما في مصر أو الشام، العالم فسيح والضيق ضيقُ الفقر يربط المرء ثم يلتصق به كرسم على جدارِ بيتٍ خَرِب.

دخل تمّام الغرفة وهو في حالة من الغضب لا تهدأ كنخلةٍ مُعمّرة ذات مفاتن وأدها أصحابها، سِحنته شاحبة وساخنة سمراء جديرة بالحُمّى، ينظر لمحمد وفي قلبه رقّة وحب نحوه لم يستطع إخبار أحد بها؛ الدنيا وما ترتضيه من إخضاع وذل وعبودية تقتل في المقابل كل شعور ناضج بين أب وابنه الذي يشبهه.

يكره فيه شبابه اللاهي وعزوفه عن العمل واهتمامه بالشعر وسباقات الطرب وحلم السفر لا لعلمٍ ولا عمل؛ يكره فيه نفسه كما كانت.

يعلم أن الابن يعشق السفر حتى لو لم يقُل، اقترب منه يُجادِلُه في نفسه:

– ما حلّ بك يا محمد؟!

توقّف محمد عن حركات يده في الهواء، أفاق من شروده وصباح خيالاته الشاحب وقال:

– لا شيء، فقط، لا شيء.

فتح الأب فمه يستنطق الكلمات لكنه يعود فيُغلِقها، لا يدري لِما دخل على محمد غرفته؟! ربما حاجته للحديث، التزامه الصرامة مع أي شخص بعدما فقدها لبعض الوقت مع زوجته، هيمنته في البيت على حياته وحياة من يعول.

نظر له ولده وقد اعتلت عيناه شفقة عليه، يعلم أن أباه قليل الكلام، باردٌ في مقامه، عليٌّ في شحوبه وصمته، لا يحفظ من الدنيا غير

علامات اليأس، ابتسم محمد في وجهه علّ نسيم التلطُّف يجري بينهما، انتظر منه الكلام فتكلّم الأب يُداري تلعثمه وكسل لسانه:

– أيا بُني، أما آن الأوان كي تعيش وِفق ما تريده؟!

سمع محمد السؤال وأعاد على ذهنه المُراد مما يُقال، أهو اختبار أم قرار أم مجرد سؤال رُمي عن غير قصد؟ لم ينطق محمد كي يُكمِل الوالد حديثه فأكمل:

– ما العمل يا بني؟!

قابله سكوت كالعادة ونظرة صافية تنتظر الإجابة من السائل فما بخِل عليه وأجاب:

– العمل يا بني هو نِتاج العلم، وما الشعر؟! هو انعكاس العلم والعمل معا، وما الرجولة؟! هي ما نفعله من معروف لغيرنا سواء كان المعروف علمًا أو عملًا، فهل يروقك الانعكاس أكثر مما تدفعك الرجولة؟!

أصغى محمد لكلام أبيه وما قاطعه، رُغم أن الكلام لم يعجبه لكنه اعتاد على الصمت من صغره، جرّب مرتين الكلام وكان الناتج سيئًا فاتّجه بعدها إلى سماع الشعر وأقوال العامة وتخزينها لحين يأتي اليوم الذي ينظم فيه الشعر. لكنه لم يأتِ بعد، الأمر الذي أباح للكل الكلام مع محمد بما يُحب المتكلم لا بما يُريده محمد نفسه، فاستجمعت لديه كل الآراء التي لن تنفعه في رحلته.

أشار تمّام بسبابته نحو صدر محمد، وقال بصوتٍ فحيح كعاشق مُتيّم يتوعّد أحد المارة على عطر معشوقته:

– من الغد أراك في السوق، لترى كيف تساعد على عودة أمك، فعودتها مقرونة بسكبِ الرجولة على طابعك.

(12)

انطلق عبد الله لبيت جده؛ يبحث عن والدته ليُقنِعها بالعودة، البيت يحتاجها، العاشق يحتاج منها النضج المرجو في تعامله مع هند، الشاعر يرجو منها نُظيرة ثقة كعادتها فتقوى رقته ويزهو بنفسه في مجابهة الحياة، يوسف يحتاجها ولا يحتاج سواها؛ من يُجيبه على أسئلته غيرها ويستقرُّ بين أحضانها آخر الليلة؟!

لم يرَ عبد الله شقيقه محمد حين علا صوت أمه، ولم يرَ يوسف كعادته يركض على مرأى من أبيه علّه ينشغل به، صمْتُ الأبناء حيّر الشقيق الأكبر، لكن حيرته الكُبرى فيما فعلته الأم؛ لماذا تترك البيت بما فيه وهو في أشد الحاجة لها، حتى تمّام؟!

– لأن أصعب الأوقات يا بُني لا تتحمّلها النساء، بل الرجال أمثال والدك.

تجنّب عبد الله كل وصمٍ ستتفوّه به سيرين على تمام، حاول استمالة عاطفتها برقة لفظٍ وعذوبة كلمات، ذكّرها بيوسف فقالت:

– الآن يجب أن يجد من يُجيب عن أسئلته غيري.

كانت عنيدة؛ اكتسبت ذلك من طقوسِ الابتلاء الذي جابهته يوما، كانت لا تنظر في وجه عبد الله حينما يتحدّث؛ لا تريد أن تضعف مرة

أخرى، هي ذهبت وأفاقت لكلماتها ولم تبكِ، لكن عبد الله فاجأها بعد صمتٍ مُستفهِمًا:

– هل تحبينه؟!

لمعت عيناها جرّاء ذكر السؤال، وبرقت بسبب سماع كلمة الحب التي تعود من بعيد، وهنا كادت تبكي فعلًا، ردّت بصوتٍ خفيض:

– أحبُّكم أكثر، أنتم حياتي الآن وإلى أن أموت.

استلهمت دمعة كلماتها واعتبرتها إشارة للانطلاق، انهمرت الدموع على خديّها تُتْلَى، احمرّ وجهها وتركت نفسها لذلك الأمر، استنشقت بصوتٍ مسموع وكأنها تُعيد الدموع لمحاجرها فما نفِع.

بلا حِراكٍ جلس عبد الله أمامها، لا يعرف ماذا يفعل؟! ضجيج قلبه يُخبره أنها ستعود، لكن حركة عقله تنبئه أن العودة مقرونة بتحقيق الأمان لكل أفراد العائلة الصغيرة.

هبط الدمع قليلًا، تجلّت الحيرة في عيني عبد الله، لأول مرة يلمح العجز والشُعيرات البيضاء التي تُزينها، نفثت سيرين من الضيق ما غنمت، ثم نظرت لابنها وقالت:

– أتحب يا ولد؟!

– ماذا؟!

باغته السؤال فردّه، ابتسمت سيرين من قلب ما هي فيه كنبضِ وردةٍ خريفية:

– أنت تحب وتعلم ما هو الحب، لكن الحب وحده لا يكفي، الحب وأدٌ لإرادة الحبيبيْن في مقابل ما تُريده الحياة منهما ليستمرا؛ يستمرا معًا يا بُني، ولو أن أحدهم تأخّر في اللحاق بالآخر لأحسّ من قطع شوطًا أكبر بالخيانة حتى وإن لم تكن على مرأى منه، و أنا أحسستها بدل المرة ألفا...

لن أعود إلا و أنا معي ما يكفي لأكمِل الحياة وحدي، فلنستثني الحب ونُنحّيه جانبًا؛ لن نحتاجه، لن نرتضيه بديلًا ولا عاملًا على قلوبنا بعد الآن، سأذهب حيث أعرف من سيساعدنا على العيْش بكرامة، بدلًا من الموت الذي يزورنا كل ليلة في المنام ويُرحِّب به ما يُوصف بالحب. ستتزوج يا عبد الله وستعرف قيمة ولدك حين تهب روحك له ولا تبالي.

قالها في إقرار بأمرٍ قد نفّذ سطوته:

– لن تعودي!

– العودة مقرونة بالأمل، ولن أعود إلا والأمل مقرون بعدد أنفاس الفقر الذي تجرعتموه.

(13)

حلّ مساء طبرستان الساحر على آمِل، فتوجّه تمّام بدورِهِ لصديقه منصور؛ كان أول رجل يعرفه من آمِل عندما كان في بغداد، ساعده كثيرًا في العودة إلى آمِل بعد خسارة أمواله في الميسر وسرقة الباقي...

لكن بالمقابل عثُر فيه على مستودعٍ للأحزان واللحظات المتواطئة على الخيانة كخُطى الذئب، كان كل ما علا صوت سيرين وغضبت تركها وذهب لمنصور، لا يعرف كيف يأتي بالخمر ولن يهتم لهذا الأمر، يكفي أنها موجودة ليتلذّذ بما تبقى له من حياة.

طرق باب منصور فخرج يُرحِّب به ويُضايفه، أدخله الغرفة التي لا يدخلها غير الأصدقاء والضيوف الأعزّاء، لاحظ منصور على صديقه علامات الضيق والهم أكثر مما اعتاد عليه، ذهب مسرعًا يأتي له بالخمر، يعلو صوته بالسؤال:

– أرى الهم قد تمكّن منك، سيرين ها؟!

تمدّد تمّام على أريكته التي يحبها، ثم قال:

– سيرين المُوجِعة دائمًا، علينا بالخمر لننسى الفقر والنساء، لم يعُد في الدنيا سوى القليل لنحياه.

– ما الذي جدّ يا صديق؟!

– باتت لا تسمع.

– لديها كل الحق.

تعجّب تمّام من كلمات منصور المُغايرة لما قد كان يلاقيه، قرأ منصور علامات التعجُّب على وجه تمّام فأردف:

– نعم، خسارة تتلوها خسارة، عبءٌ عليها، والآن لا عمل، ماذا تفعل في حياتك يا صديق؟!

– أنت تعرف ما حدث.

– ما حدث يا صاحبي كنت جزءًا منه، أنت الذي أدمنت الخمر وأمسك بك رجال الشرطة، ثم لمّا رشوت الرجال وهربت لم تتعلّم من خطئك، وقامرت حتى خسرت.

– كان خطئ نعم، لكنه لم يتكرّر.

– لم يتكرّر لأنك بعدها لم تكن تملك الذي يكفي لعودتك.

– سُرِق، سرقوني في تلك الحانة التي لعبت فيها القمار.

– سرقوك بإرادتك.

– ماذا تريد مني الآن؟! تريد أن تقول أن سيرين تحمّلتني؟! نعم، هذا حدث، لكن الفقر كما تعلم لا ينفع، ولو كانت تحبني.

– الحب لا يشفع في الفقر يا صديق.

أتاه منصور بالخمر وصبّه في الكأس فالتقطه تمّام في الحال وشربه التقامًا يعجب له الساقي، ثم أعطاه الكأس بين يديه وأشار له أن صُبّ أكثر، فصاح به منصور:

– تجارة الخمر أصبحت أصعب من ذي قبل يا تمّام، و أنا لست إلا تاجرًا قليل المال والحظ.

– أراك قد لبست ثوب سيرين بعدما غادرتني.

– غادرتك؟!

انتهزها منصور فرصة وأردف:

– أخشى أن أغادرك أنا الآخر.

عقِل تمّام إلى ما يرمي إليه منصور فقال:

– يومًا ما سيعود المال بين يديّ وأرد إليك ما اجتلبته منك.

– ليس هذا ما أقصده يا صديق، الماضي كان كرمًا مني، لكن الآتي هو ما أرمي إليه، أنا رجل لديّ التزامات وعائلة، وتجارة الخمر في تلك الأنحاء أصبحت رائجة، أتعامل الآن مع الأمراء و أفكِّر في صنع الخمر بدلًا من جلبه.

لم يهتم تمّام بما سمعه بل أخذ منه الزجاجة وصبّ في حلقه مرة واحدة، وعندما انتهى من إحساس مرارتها في حلقه قال:

– أفكِّر في الهجرة من هنا، لم أعد أطيق زوجتي ولا بيتي ولا حتى الخمر التي تأتيني بها.

– هجرة! من يهاجر؟! أنت! لا، لن تسافر، ستعمل معي.

– في الخمر تقصد؟!

– نعم، وسأسامحك في كل الأموال التي اقترضها مني، لكن مقابل خدمة.

– الفقر غلب الخمر يا صاحبي.

أمسك منصور بصاحبه وقال يرشده:

– إذًا، غنائم الحرب تبدأ لك تجارة جديدة.

– حرب! أي حرب؟!

– الحرب التي يتحدّث عنها العامة! الحرب وشيكة يا صاحبي، فلتصحو من سُباتك هذا.

– أي حرب؟! تتحدّث عن حرب مع من؟! الخلافة قد استكفت من الجنود والثغور على خير ما يُرام.

أشار منصور بسبابته إلى دماغ تمّام وقال:

– قلت لك أني وصلت إلى الأمراء، وأعرف ما هم عليه الآن.

– وما علاقتي أنا بهذا؟!

– الأمير سليمان نائب الخلافة على تلك البلاد يجمع الجُند ليردع الحسن بن زيد وادّعاءاته أنه أحق بالخلافة، ويريد رجالًا لينضمُّوا إليه.

– وتريدني أن أنضم؟!

– تذهب وتقاتل وتغنم وتأتي لي بما غنمت فنقتسمه، وإذا أردت العمل معي لك هذا برأس مالك، وإن لم تُرِد لك ما أردت، واذهب بغنائمك.

ابتسم تمّام لما قاله منصور وقال:

– غنائمي فقط؟!

– ما طالت يداك.

– وإذا هُزِم الجيش.

– تذكّر مصير يحيى بن عمرو، وكل من على شاكلته سيكون هذا مصيرهم.

– القوم سيكرهونني، إنهم يكرهون الظلم.

– أنت لست ظالمًا، أنت صاحب رأي، اذهب و اقتل الحسن بن زيد يا تمّام، إنه على مشارف شالوس، قريبٌ من آمِل.

– شالوس! فليأتي من يأتي ويذهب من يذهب، المهم هو ما حوته يدي.

ربت منصور على كتف صاحبه

– هذا هو تمّام الذي أعرفه.

– ما أرى إلا أن القدر يخدمك الآن يا صديق؛ بنو العبّاس قد استعدّوا جيدًا وسيبعثون بجيشٍ لردع الحسن، وما أرى إلا أن

تذهب فتُقدِّم الطاعة وفي المعركة اجعل عينيك على الغنائم وبعدها تأتي بما تستطيع حمله إلى هنا، وسنجد لها مصرفًا كما الخمر.

توقّدت الفكرة في عقل تمّام ووجدها فرصة سانحة للقضاء على فقره وغمِّه، فقال مُسرِعًا:

– والفرس؟!

– فرسي موجود يا صديق، الليلة قبل غد.

فردّد تمّام كالمُغيّب:

– نعم، الليلة قبل غد.

ثُم أمسك بزجاجة الخمر وتجرّع نصفها المتبقي على مرة واحدة، وقال لنفسه يُحدِّثُها:

– إذا أصبحنا مع ما يريده القوم فلن نشبع، لكننا سنظل أبطالًا في أعينهم وأعين فلذات أكبادنا بالذات، أعلم أن محمدًا ولدي لن يكون في صفِّي، لكن البطل الحقيقي هو من يعبربأبنائه إلى بر الأمان، فليكرهونني ويُطْعَمون بدلًا من الحب الفقير.

(14)

لم يكن قد كتب بيتًا قبلها لكنه حاول، كلمات والده ذبحته، ذهب مُهتاجًا مثل مخمور يرى الأشياء بأربعةِ أعين ناحية مجلس أبي الفضل؛ علّه يستلهم منه زمام حياته وما يحبه، سأل عن كيفية نظم القوافي فأجابه القوم عن الشُعلة التي لا تنطفئ؛ شُعلة الإلهام ورؤية الجمال من كل منظورٍ في الكون، بحث عنها في بيته فما وجد غير الحاجة، وفي البحر فما لقي غير وحشةٍ بلا ضفاف، في قلوب العاشقين ودروب الهلكى وتحت سِياط الرياح وفوق كل ذي عقل، ولكنه لم يجد سوى بضع كلمات لا تنفع، وبضع أبيات قد كُتِبَت فتعجّب كيف أن الشعر لا ينتهي رغم أن بحر الكلمات معروف آخره من أوله، وتشهّد واستشنق كل نسمة مُربِكة ساحرة فما اسطاع أن يُعبِّر عنها، وحده أبو الفضل من كان يدُله، يبتسم له امتنانا، يُشجعه على إلقاء الشعر في الأسواق وفي مجالس الكبار، وحده كان يتمنّى لو كان هو والده فعلًا، لكن الحياة لا تُعطي لمن أراد ما يُريد وما يحتاج.

وصل لمجلس أبو الفضل، دخله فوجد القوم مجتمعين يتناوبون الحديث باهتمام، ذهبت عنهم لوعة الشعر ومذاقه وباتوا يتحدّثون في أمر الحرب القريبة على حدود آمِل، ضرب بعينه ناحية أبي الفضل يستجلبه غيبًا ومن وراء القوم فما استجاب، رآه أبو الفضل، ثم صرف بصره بسرعةٍ كأنه ينظر إلى ملابس مهترئة، وظلّت عينا محمد تزحف

بين العامة علّ المجلس ينفض سريعًا لكن الحماس أخذهم وكاد يفتك بهم، انتفخت الأوداج وأرهفت الأسماع لنفسها؛ كلٌّ يتحدّث بما في نفسه وكأن ما كان البارحة من صمتٍ مُرتعد قد حُبِس اليوم، وأفرِج بدلًا منه عن كل ما لم يستطع القوم قوله في قضيةٍ أحد طرفاها الخلافة.

أحسّ محمد بالضيقِ والكُره فجأة تجاه المُسمّى الحسن بن زيد الآتي من الري، كُل من يسمع عنهم ويتحدّث في سيرتهم الناس في هذه البلدة جاؤوا من هناك؛ من الري، لهذه الدرجة من الأهمية تلك البلدة، متى يذهب لها؟! متى يراها ويعيش فيها ويتعلّم ما يجعل القوم في آمِل وطبرستان كلها يتحدّث عنه ويكون هو الأشهر والأمهر في صنعة الشعر. متى؟!

ترك محمد المجلس بمن فيه وقد أضمر في نفسه قرارًا لا رجعة فيه، سيذهب إلى الري مهما كلّفه الأمر، كان محمد قد عرف وجهته القادمة؛ حانوت الحطب الذي يعمل فيه شقيقه؛ لكسب بعض القوت الذي سيساعده في سفره.

(15)

الظلام نقطة، والنقطة هي الأصل.

الظلام يحوط بيوسف من كل جانب وهو كجزيرة ترتعد.

فتح عينيه، بحث عن أمه، ظلام، ضوء قنديل خافت يأتي من بعيد، كأنها الصخور تُضيء، حاول تحريك يديه فوجد العجز بالمرصاد، ابتاع بعض أسئلة من خزانة عقله، صبيٌ مميّز هو؛ يسأل حتى في أشد الأوقات حُلْكَة؛ ما الذي أتى به إلى هنا؟! أين هو في الأساس؟!

ظهر رجل بقامة متوسطة من قلب الصخور، يخطو في كهفٍ مُظلِم بقنديل واحد، نظر له الولد نظرة رجل ينتظر الموت القادم، تحشرج صوته قبل أن يصرخ مستنجدًا بأحدهم، اقترب الرجل من السرير الذي يتمدّد عليه يوسف وأضاء قنديلًا آخر، نظر يوسف لوجه الرجل؛ بلا لحية كان، أبيض البشرة، شُعيرات رأسه البيضاء كأطراف الكون مُبعثرة، عيناه بلونٍ مختلف عن ما يعرفه يوسف من ألوان، ابتسم العجوز بدوره ومدّ يده يتحسّس قدما يوسف فصرخ الأخير جرّاء ألم ألمّ به، ثم هدأ بعد أن قام عنه العجوز وابتعد.

قلّب يوسف عينيه في المكان فوجده: صخورٌ بجانب صخور، بعض من الثلوج في جانب، ربما يستخدمها العجوز، أو أنها أتت من

المطر من فتحةٍ ما في هذا الكهف، لا مبالاة العجوز وصمت الصخور يخوّف أي كائن من كان، لون أسود ربما هو حجر الكُحل يكتب به العجوز على الصخر، حاول القيام فتألّم لقدميه فاقترب منه العجوز مرة أخرى وقال:

– وجدتك تصرخ البارحة من فوق صخرة قريبة، وقعت على الأرض وقد كُسِرت إحدى قدميك، سترتاح هنا حتى يتسنّى لك المشي.

– من أنت؟!

ابتسم العجوز وقال:

– أنا أحد سُكّان آمِل، لكني لا أحب العيْش بالخارج، عندي ما يكفيني من الحُزن المُخدّركي أعيش معه، اسمي نَجْم الدين و أنت؟!

أجاب بارتباكٍ واضح:

– يوسف!

(16)

كان عبد الله مُتيقّنًا من أن لو اجتمعت عقول الإنسانية ما وزنت عقل سيرين ورجاحتها، فتَرَكَها وما بدا لها أنه صحيح، رغم ما ألمّ به من غمٍّ لفراقها بعض الوقت، استبدل همّه بتنهداتٍ بلا صدًى منبتها قلبه؛ إذ يسكن فيه كل من عرفهم، يغرقون في بحرٍ من الذكريات، تُهشِّمُهُم عاصفة سرية من الحب وعينا هند؛ روحها النحيلة كحُلْم أزرق كالسماء؛ لا يطوله ولا يكف عن الحلم به، يرى سيرين في بعضٍ من هند، وفي هند كلُّ سيرين وزيادة.

يكاد يُجزِم أن والدته في شبابها كانت كتلة من النضارة، الاقتراب منها كلعب لعبة وحشية بلهاء، محاولة الحلم بامتلاكها موجة من اللعنات يتلوها أهل الحسد الذين يريدون كل حُسْنٍ وجمال في آمِل وما دونها، لكن تمّام أخذها عنوة مثل ليلٍ قاهر مظلم وربما جنائزي لا يرق لقلبٍ كالشمس في عنفوانه وفورانه، نديٌّ كالفاكهة الرطبة، فاختلط الليل بالنهار ليُنْجِبوا عبد الله الذي أحبّ ولا طال كقصيدة مُدانة تسبح بنورها في ظُلُماتٍ ثلاث؛ أولها ظلمة الفقر، وثانيها ظُلْمَة الحب إن أتى في غير ميعاده، وثالثها ظُلْمَة المستقبل إذا قيّده الحب والفقر.

لم يكن عبد الله يقيس الأمور كما الناس، كان له مقياسه الخاص واسمه هند، إذا كان العمل يُقرّبه من هند فهو الأفضل والأجدر والأحقُّ بالتأييد، فهو لم يحْسِب قرار سفر سيرين بالسفرِ ناحية شالوس

بحساب المنفعة الأمومية كما قالت هي، بل وافق في نفسه هوى أمه ورأيها وعزمها إذ رأى أن القُرْب سيكون حليفه إن نجح الأمر، امتزج جسده المبتهج مع قلب أمه الحاني وصدره المتسامح فيما يخص هند مع صوت سيرين إذ تُقرِّر المغادرة، سمِع صوت نفسه يدعو لوالدته بالتوفيق في سفرها فكانت البراءة مُتوحِّدة بالشبق في عينيه وصوت همسه، لم يكن يُفكِّر في السفر كما في بادئ الأمر فأمه كَفَتْهُ؛ بات السفر في رأسهِ كقنديل استسلم للفناء.

ذهب صباحًا للحانوت، لا يعرف من أمرِ والدهِ شيئا، لم يعد يهتم، ينفث أباه كمستهترٍ فَرِح، والده بالنسبة له كفقاعات تتصاعد في الهواء حتى إذا لامسها الاهتمام انفجرت واختفت، قرّر عدم الاقتراب من تمّام ولا محادثته، يعرف تمّام؛ ضحية كل الطغاة في العالم. هكذا يُقنِع تمّام نفسه بحُجّةٍ واهية ضعيفة كالفقاعة سابقة الذكر.

أما عن يوسف فلم يره البارحة حين عاد، قدّر أنها خلد إلى النوم فما كلّف خاطره وذهب للاطمئنان عليه، يكفيه محمد الحنون الشاعر صاحب الكلمة والأحلام الوردية دون عمل، يوسف كالكرة المُضيئة لكنها هشّة لاقترانها بمحمد، لذلك لن ينفع. لن يجد أجوبة شافية لأسئلته إلى أن يهلك، عليه أن يخرج ويقترن ويلعب ويُجرّب بيديْه ويحْكم بعقْلِه، ولا يكون لجامه إلا قلبه إن لزم الأمر لوقوفٍ أصلًا.

أسرع عبد الله ناحية الحانوت وهو يبتسم في وجه عامة أهل السوق، بسمة تاجر يعرف موطن قوته ويُخبِّئ حصن هند في قلبه، وصل ودخل واستقر حتى جاءه شقيقه محمد.

يراه عبد الله كطاغية يحب الشعر كوالده، يحب الطرب واللحم وقُل الخمر إن شئت شكًا، انشغل عبد الله بنقل الحطب والأدوات الخشبية وتنظيمها ووضع كل شبيهة بجانب أختها حتى يكون الشكل أجمل. أو هكذا ظن، ناداه محمد وقلبه يخفق كمجداف يعمل بسرعةٍ كي يُنقِذ صاحبه:

– عبد الله!

نظر له عبد الله منتبهًا كزهرة تتفتّح كَذِبًا، ثم ابتسم كنبع ماء كان في أصله أخدودًا حُفِر كُرْها، ترك ما بين يديه وخطا نحـوه يصافحه ويقول:

– تفضّل يا أخي، ما الذي جاء بك في وقتٍ كهذا؟ ليست عادتك، فأنت تركض نحو طبيعتك ومُبتغاك! أما عن موضع العمل والسوق فليست أرضك!

فَطِن محمد سريعًا لِما بين الكلمات، نظرة شقيقه لا توحي إلا بالخُطى بألسنةٍ تهرس أرض فاترة، عادة والده التي يشبهه فيها، لكنه نسي سريعًا أو تناسى ما قِيل، لو كان في موضعٍ آخر لعلّمه كيف تكون الكلمات، لكنه قال:

– أي موضع كان وسيكون هو منبت الشعر وأصله، لكن ليس المهم الآن لماذا لم أكن هنا يوما، المهم هـو لمـاذا أنـا هـنا اليوم؟

– أرى أني سألت و انتظرت الإجابة وما أتت.

جلس محمد على أريكةٍ فارغة فوجدها ناعمة كالزيت يعلوها من الجانب الآخر بعض الخشب الجاهز للبيْع، تماوج عليها حتى استقر ثم قال ما ظلّ طوال الليل يُفكِّر أن يقوله:

– أريد أن أعمل لبضعة أيام.

– هل أمرك والدك بهذا؟!

باغته السؤال، نظر محمد نظرة كالضياء الشاحب لا يُضيء ولا ينطفئ، هل يقول إن كلمات والده أثّرت فيه وجعلت من حظِّهِ نافرًا للعمل؟ أم أن التيه لا يزال يعمل بقلبهِ عمل الألوان المدوية والأثواب الصاخبة حين يتغامز بها وعليها القوم ويسخرون من صاحبها؟ فمحمد لو رآه القوم من الداخل لأصبح موضعًا للسخرية والتمايل للشغبِ الذي يجرجر وهنه وقلة حيلته، لكن محمد آثر السلامة وتعجّل بادّعاء قوة ليست فيه اليوم وأجاب:

– إذا كان حلمك في السفر قد مات بكلمة، فأنا لن أصنع له جدثًا بفعلِ الآخر حتى ولو كان والدي، سأعمل حتى أهاجر.

ضربه محمد بكلماته، انفجر بعقله ماءً ثرثارًا لونه كلون التأرجح فيما بين الضعف والقوة، ضحِك من توتره وألقى على شقيقه الصغير سؤالًا يحفر به جُرْحا واهيا في نفس محمد علّه يتأوّه ويتركه:

– وماذا ستعمل إذًا؟! لا عمل لذوي الألسنة هنا، هنا الأيدي التي يحبها الله ورسوله.

– أريد أن أعمل معك.

اختارها محمد وهو يعلم أنها الأصعب على نفسه؛ العمل مع شقيقه لا يحتاج للسواعد قدْر احتياجه للصبر والتحكُّم مقابل ما سوف يتلقّاه من أخيه... وخِلاف ما كان متوقّعا فقد وجّه عبد الله دفّة الحديث على نحوٍ مُغاير لما أراده محمد وسأله عن والده:

– كيف هو الآن؟ والدك!

– يسبح في الظلمات، أراه دومًا على حافة مستنقع.

التفت عبد الله فجأة لبابِ الحانوت وقال:

– أما أنا فلا آراه.

لحظتها مرّت هند بالباب وألقت النظرة، هي النظرة الخاطفة لكل معاني الجمال، استنشق عبد الله العافية، وانشقّت منه آهة طويلة خافتة خوفًا من أخيه، ثم قال على عجلٍ:

– سأتركك هنا، سأذهب إلى السوق لأقضي حاجة.

لم ينبس محمد بكلمة ولا أراد ولا ترك له عبد الله الفرصة، فقد ذهب إلى أُفُقٍ أزرق كالسماء؛ جمالها هش وظلها وحرارتها وليلها ونهارها في قلبه واحد متوحِّد.

انطلق كموجة سعيدة وسط بحر فاتر حزين، يتلوّى خلفها كأفعى على جمرِ الشوق، أو كرقصة للزهور إذا أنبأها النسيم بقدوم الربيع، يراها وحده ككنز يُومِضُ في قلبه فيخرج على هيئة لَمْعَة بعينيْهِ؛ برق الشهوة المُتّقِد. قرّر أن يخطو خلفها إلى نهاية الطريق كي يخبرها بأن جبل دمافند ينتظرها.

(17)

جلس محمد في الحانوت لا مرّ عليه صاحب عمل ولا عاد عبد الله، يبيع وِفْق ما التقطته أذناه أثناء السيْر مرة أو مرتين في السوق، لا يزال عقله في وادٍ غير وادي العمل والمال ولهجات السوق التي تنفر خفية من الشعر، بعيدًا عن هذه الأرض المفروضة على القلوب الطامحة للعيْشِ الرغيد، ورغم أنهم يُقَدِّسون الكلمة وصاحبها لِمَا لها من لذّةٍ للعقول، لكنهم يعتبرونها لذة للعقيم لا تُنْتِج ما يروي ظمأهم الذي لا يهوى السراب بل يصبوا إلى المادة وما حوته من حيواتٍ يعلمون أنها فانية.

لم يَعُد محمد يُبالي بِمَا يسمع، ولا يسأل نفسه كل يوم لماذا لا يملّ القوم من تكرار نفس الكلمات بنفسِ التراكيب في نفس المشاهد؟! قدّس الفراغ وتملّك منه حتى بات داءً له من كل ثرثرة لا تُجدي له نفعًا، إلى أن وجد أبا الفضل سيد السوق والشعر، كان أبًا للفضلِ حتى تشرّب منه واستسلمت معزّته للموت.

أصبح تائهًا بين كل اختيار وضعته الدنيا أمامه، فهو لا يكره والده قَدْر كُرْه اللامبالاة التي تُفْرَض عليه كعمل حسن ورداء والده فيها أن الانشغال بما تتفنّن به الدنيا لا يُغيّر شيئًا من القدر، وأن مجرد التفكير في الاختيار لهو ضحك على النفس وهجاء ساخر يُومِض بِطَاقةٍ قد تزور المرء في أحلامه لكنها لا تُحرِّك الكون من حوله لِمَا يريد، السعادة مثل الغم لا ترسم عملًا موازيًا، ولا تمحو قوْلا قد قيل وانتهى أمره، يكره

انشغال أمه واهتمامها الزائد عن الحد؛ وتفصيل ذلك في دنياها أن الكثير من الحصى يبني جبلا، ومُستصغر الشرر قد يحرق آمِل، وأن ما علينا سوى الاجتهاد حتى تأتي اللحظة الفارقة فيتغيّر كل شيء، الجبل لن يُبنى إلا إذا كان إيمان سيرين وأحفادها وأحفاد أحفادها بالعمل القويم، وحرق مدينة بأكملها قد يقوم به واحـد وقد يقوم به نفر. المهـم أن النية موجودة، فالفكرة هي الأساس وبعدها يأتي الجُهْد قـلّ أو كثُر.

تائهٌ ما بين قوة أبيه التي تاهت ما بين الضحكات المخمورة، لا يزال تمّام في نفسه الإرادة لنقل ما تبقّى منها لمحمد بالذات لِمَا يراه من شِبْه شَبَه لا يهدّه الزمان ولا صورة الوالد في نفسه، بين عاطفة والدته التي ورّثتها له وباتت تحوطه بها من كل جانب كأنها تبني جدارًا لتحميه من غدْرِ أولاد الحياة وبناتها؛ باهتمامها به وتغذيته على العاطفة المُتّقِدة التي لا تمرض ولا تتعرّض للفناء.

وما بين اللامبالاة القوية من جهة والاهتمام ذي العاطفة من جهة لا يرى محمد لنفسه مسلكًا ولا دربًا في البيت، يقيس نظراتهما له بسُمْكِ الجدران التي تحوطه. فما رأى يومًا أن من العدل اقتصار الاختيار على فِكْر نوْعَيْن من البشر ونظرتهم للأمور، فهرب إلى آمل؛ المدينة متعددة الدروب.

وأول من اصطدم به كان شقيقه عبد الله؛ المحبوس وسط صرخات قلبه وأطياف محبوبته واهتياج رأسه والحلم الذي يراوده كل ليلة ويكبر معه، تعلّم من شقيقه شر المشاعر وذعر ساكني الغُرَف السوداء المُسمّاة بالعشق؛ يخنقها الواقع ولا يُربّيها التنوّع؛ فهي غرف

ذات نافذة واحدة بزهرةٍ واحدة بلونٍ واحد، الغريب أنهم يعيشون على أملِ امتلاك تلك الزهرة للأبد، يحبون الفناء لأجل الوصول، لا يرون ما بُعيْد مجلسهم. كان يتعجّب من فعل التخفّي الذي لا يتقنه عبد الله، لا يريد أن يُخبِره أن قلبه مفضوح كالحكاية الشعبية تنتشر في الليل على مَسْمَعِ الأحفاد، لكن محمد لا يرى نفسه في هذه الحكايا المنفردة. لم يكره أخاه ولم يحبه، فقط استردّ عافية اللامبالاة من والده وصدّرها تجاه شقيقه.

قرّر أن يخرج أكثر، يتعرّف أكثر، مضى على ساحل بحر قزوين يسمع من تجار بغداد وسقسين والبلغار والهند والبلاد التي لا تزال ثقافة فارس تنبت فيها فسمع منهم رماد الشعر وغبار الطرب حتى اعتادت نفسه تلك الروائح.

وتبنّاه مجلس أبي الفضل، فالتقم محمد كل ما مرّ عليه من الشعر وإلقائه وحكاياته ومواقفه وبغداده ومصره ودمشقه، وملوك اقترفوا في حق الشعراء سوءا، وأمراء كرّموا الشعر فوق الكرم بكره، وحيث الرواية التي لا تجدها عند أهل الرواية من أجداثٍ تتلو ما حلّ بها، وحيوانات تحكي حيوات، وأمور استعجلها بنو البشر فطارت من بين أيديهم وحلّقت في فضاء اللاحلم واللاواقع واللاجدوى؛ حيث حكايات شعبية من طبرستان ومن آمِل تحديدًا ومن أهل فارس، حتى يتعجّب صاحب البلاغة الأدبية من انتقاء الكلمات من البلاغة القصصية، وامتطاء السرد فيذوب كلاهما في إناءٍ، ثم يخرجان مُتباينين كما هما لا يُرى عليهما أثر الذوبان ولا المزج؛ لِكُلٍّ ترابه الذي خُلِق منه.

ضربات قلبه التي امتزجت بحب الشعر فحمله في صدره حيث يكون وأين ما سار، يختفي صوت والده في صدره كلما علا صوت الشعر، تنعّم في بيداء القوافي حين ما كانت تهب عليه عاطفة أمه، لم يكن يجد السلوى ولا الهروب من جنون العشق إلا بكلماتٍ تفوقه جنونا، كان الحظ بجانبه، إذ لم يكن لديه صوتان يُحدِّثانه ويخلقان له خللا...

كان صوتا واحدا أشبه بصوتِ أبي الفضل على قدر من الضخامة التي لا تعرف طريق الأحلام، يُخيف بالكلمة ويُهذِّب بها، يعلو بالكلام عن السوق ويخفض الشعر إلا إذا احتاجه لسد ذريعة ما...

أخذها منه محمد وبات يُلقي بها في كل مكان حتى يتقرّب منه، يُقلِّده ويمشي مثله. يغضب مثله، يتضخّم مثله، يرتبك مثله، لم يكن يرى العوالم إلا بعيني أبي الفضل، فقرّبه منه حتى تداخل محمد فيه وأصبح ابن المجلس وابن سيده.

لم يكن محمد سيئًا في المطلق حتى يترك جدران بيته وعاموده، جاول جرّهم للمجلسِ فما نفع، حاول إلقاء الشعر على والده فنهرته أمه وصمت الوالد كالعادة، حاول أن يُجيب على أسئلة يوسف الصغير بإلقائه الإجابة بالشعر الذي يعرفه، فاستشعر في نفسِ أخيه تذوّق الجمال، وكاد يزيده لولا أن قرّعه أباه على غير العادة، كان يلحظ في والده عاطفة منكسرة تلملم ما تبقّى لها في الحياة كي تعيش ما يكفيها، لكنها سرعان ما عادت للاختباء وسط كَوْمة من اللامبالاة القوية.

الرجل الوحيد الذي طلب منه سماع الشعر كان شقيقه، لم يكن يريد إقحام نفسه في قصة حب عبد الله، لكن القدر سلب منه أهل

بيته عدا الرجل الذي لن يأتي للمجلس حتما، فاكتفى ببيتين ألقاهما على مسمعه ثم تولّى.

كَبِر محمد على مجلس أبي الفضل وترعرع فيما يخص الشعر فقط، كان يهرب من أحاديث التجارة والسوق، بدأ أبو الفضل يزهده حين ما رأى فيه العنفوان الذي لم يمتلكه إلا عندما خطّ الشيب في رأسه، لكن الأوان قد استقرّ في ذهن محمد بالهجرة إلى الري القريبة، سقط أبو الفضل من نظره شيئًا فشيئا عندما كبرت أحلامه؛ علاقة عكسية لا يعلم لها سرّا، ربما كان السر الوحيد هو الطموح الذي نشأ في صدر محمد ونبت حتى اخضرّ في عقله واستوى، الري محتطب الشعراء.

سكت في بادئ الأمر واستقر حتى تهدأ العاصفة فيغتنم الهدوء بأخرى من صُنْعِه، هو لم يتعلّم استغلال الأمور العظيمة لصُنْع كلمات أعظم، رغم أن أبا الفضل قد سطّر في عقله ذات مرة أن استغلال الطيبة والأحداث والأبطال أو أشباه الأبطال أو من يريدون ولا يستطيعون صُنْع كلمات تُخلِّدهم أو هكذا ظنوا، الكلمات هي من تصنع الشاعر أولًا وأخيرا وإلا لو سكن كرمال الصحراء ينتظر الرياح تُهيّجه فإنه سيظل ساكنا في حضرة الرياح أو بدونها، الشعر ليس لعبة الشفاه فقط؛ بل هو لعبة كل زاوية محسوسة في هذا الكون؛ الشعر هو اللهيب الأبدي.

لم يعد يروقه مجلس آمِل، هناك في الري مجالس بالتأكيد بل المئات من أبي الفضل وخيرٌ منه، سوق بأسوار يجمع أهل الهند وبغداد بكثرة وحتى أهل طبرستان، هناك معترك السياسة الأصلي حيث استقرّ ذلك المدعو الحسن بن زيد دهرا قبل أن يعزم على التحرك نحو بلادنا،

هناك سوق الشعراء واللحن الشجي، هناك الإجابة على أسئلة يوسف وقصص عشق أجْوَد ألف مرة من قصة عبد الله التي لا تنتهي.

قرّر محمد الهجرة أخيرا، لن ينتظر حتى يغتنم عاصفة ما، سيكون كما أراد دومًا أن يكون العاصفة.

(18)

نحن نهرم إن عجزنا عن الحب أو العطاء أو ما يليهما من حياة، لدى الإنسان دومًا دافعًا للتحرك يتشابه فيه مع كل الكائنات، الكل يمتلك الحب؛ الكل يمتلك الدافع.

سيرين امتلكت الفطرة، النقاء، التربة الخصبة للإنسانية، مستعدة للفراق من أجل لقاء أجمل، تحوي الأمل والرضا ويا له من شيءٍ خطير، تحلم ببستان وترضى بأقل من وردة، تطمح إلى النهر الجاري وتفرح بقطرات مالحة على جبينها، الحب لا يهرم ولا هي كذلك.

قررت السفر واستعدت...

أجّرت الفرس ورأت أن الصباح هو الوقت الأمثل، انطلقت روحها كفراشة لا تقبل بأقل من الحرير أصلا والأزهار موئلا، المسافة ما بين آمل وشالوس يقطعها الراكب في نهار، بين الصخور المتراكمة والطريق الضيّق الوعر تمضي وسط قوم مسافرين من تُجّار وعمّال وحطابين وفقراء وآملين وآمليين...

لا يهمها من ضلّ كتمّام إذا اهتدى أو فارق، تلتحف برداءٍ أسود مكثت عليه أيامًا تخيطه كي تظهر فيه كالقمر وسط العتمة.

كان معها في الطريق شاب جلد وجهه صغير كيوسف، تراه فلا تملك إلا أن تحبه أو تعطف عليه، يقود صغارًا خلفه على العربة، طاردها السؤال فألمّ بها، سألته بجرأة المسافر الذي لم يجد سلوى في سفره غير السؤال؛ سألته عن ذهابه لشالوس فأجابها:

– والله يا أمة الله، قد وهبت نفسي لخدمة آل البيت، و إني قد سمعت أن الحسن بن زيد متوجه إلى شالوس الآن فركبت فرسي وأحضرت العربة التي أملكها وجلبت أبناء أختي، وها أنا ذاهب لخدمته، علّه يقبلني.

– ولِم لم تجلس في آمِل وتستقر حتى يأتيك الحسن ثم تعرض عليه خدمته؟

– السابقون السابقون يا أمة الله.

حصدت كلماته منها التعجب، تملكتها حيرة أخيرة فسألت:

– ولِما تعذِّب الأولاد؟!

فأجاب بعينٍ تشبه عين تمّام إذا انكسر وللعين الأخرى نبضٌ من رجولة باكرة:

– ليس لهم سواي بعد ما ماتت أمهم.

أشفقت سيرين عليه وعرضت خدمتها خلال الرحلة القصيرة، وافق على مضض، لم تشغله بالأسئلة ولا الذكريات، لم تسأله حتى عن المستقبل القريب ولا هو سألها، كلٌّ سيمضي في طريقه، أمست تلعب مع الصغار وتُشْبِع أمومتها الفائتة.

بطرف يدها الرهيفة وبعينها الضاحكة نثرت بعضًا من الثلج على عربة الأطفال، خانتها يدها وضحكتها والثلج الذي هبّ على وجهِ مسافرٍ آخر، كان وجهه كوجه محمد إذا غضب، تكسوه لحية مبعثرة، الرجل لم يغضب ولم تظهر على تجاعيد وجهه أي بادرة لجنونٍ أو تعقل، خفتت الضحكات وكسى الصهيل سكوت، همس تشبّع بالخجل انطلق من فم سيرين مُعبّرًا عن الأسف، تلاه أسفًا من الأطفال يستنجدون ما في قُلَيب الرجل من رحمة...

كان الشاب منشغلًا بقيادة العربة، والرجل خلفهم يتهلّل وجهه وهو يصرخ فيهم:

– سيكون عيدًا سعيدًا في شالوس يا أولاد، صحيح؟

صرخ الأطفال ثلاثتهم من المفاجأة ومدُّوا الياء في:

– صحيييح!

أخذ قطعة من الثلج وألقاها عليهم وهو يضحك ويقول:

– دقّة بدقّة.

صاح طفلٌ منهم:

– لكن سيرين هي من قذفت الثلج يا عمّاه!

صدّق الأطفال على قوله وضحكت سيرين فردّ الرجل:

– و أنا قد سامحتها.

– شكرًا يا سيدي.

قالتها وهي تتقدّم العربة فرحة بالسفر الذي لم تستنطق فيه المتعة يوما، ليس سفرًا بالمعنى؛ فالمسافة ليست كبيرة حتى تحتاج والأمان منتشرٌ في ما بين الصخور وأهل آمِل معروفين والقوم في التنقل ما بين آمِل وشالوس كثير وخصوصًا في الآونة الأخيرة.

أرهفت السمع للرجل وهو يحكي عن عمله ومقصد سفره، علمت أنه أحد التجار الذين يتركون أنعامهم في تلك الأرض التي استولى عليها ابن طاهر، هو ذاهب لأخذ أنعامه أو طلبها، أو الحرب من أجلها.

قفزت أمنية الوصول في بحيرة التحقيق، دخلت سيرين شالوس مترجلة قرب المغرب، ترفرف بجناحيها مودِّعة الأطفال الصغار، تبتسم لمن يشبهان ولديها، سألت عن محمد أو جعفر ابنا رستم أصحاب الفضل والمقام والدعوة لبيعة الحسن، أنبؤوها أنهما في جنوب القرية ينتظران قدوم الناصر الحق الحسن بن زيد العلوي ورجاله، خلّفت البحر وراء ظهرها ومضت تأمل في البيعة والفضل وكرم الحياة على امرأةٍ مُتعبةٍ مثلها رغم انتفاء العلم بطريقة الوصول، شدّت فرسها الأسود ولملمت رداءها الأسود، عن يمينها الشمس تغرب، على يسارها صخور يتهاوى بياض الثلج من عاليها، تترفّع عن اشتياقها لأولادها، ويهذي القلب بقُرْب الرجوع أو بُعده حتى وصلت راجلة لمقرّ الجمع، وقفت حتى يتسنّى لها الرؤية ويتضح لها الموقف.

كان القوم يصطفُّون كمن عَلَا فوق رؤوسهم صوت السيوف، تطوف عليهم روح البهجة وصبر النصر، السراب من حولهم حُبِس،

والفرح في أنصهم اندس، الصبر سيدهم والطموح يبنهم، هم الفقراء المظلومون، الأثرياء بأموالٍ لا تشتري شيئا، الملتحفون برداء الجوع من بعد وعد بالحياة، كل ذلك فعلته أخبار قدوم الحسن، بيعته التي صالت وطالت كل بيت، سيرته التي كادت تختفي لولا تفشي الظلم في الولاة، كانت تراهم –سيرين– من ظهورهم وتتذكّر كل انتظار طالها في الحياة ولم يكن كما ينبغي أو كما تأمل، الصبر على سفر تمّام، الرضا بلهوه ومجونه فيما بعد، وصول عبد الله بعد انتظار، الصبر على الفقر إذ طالهم وتوحّش فيهم، السهر لأجل العائلة.

تزهو سيرين ويُصيبها الفخر لوهلة وتُسِر في نفسها أن لو كان الحسن يشبهها فيالحظ القوم.

لاحظت النساء التي تقف بجانبهن أنها وحيدة فريدة تمسك بفرس يعلوها السواد فأضمروا خوفا، بلّغن أحد الرجال بشكهن في تلك المرأة، فاقترب منها بعض القوم؛ ثلاثة نفر يتقدمهم رجل بوجهه حُمْرة، أغلظ في سؤاله:

– من أنتِ يا أمة الله، وما جاء بك في هذا اليوم؟!

انتبهت لما حلّ بالأعين حولها من تطيّر وخشية، فأجابت أنها جاءت من آمِل طمعًا في كرم محمد وجعفر ابنا رستم، تطلب منهما المساعدة والعمل، فما وجدت غير الوجوم ردًّا لكلامها، فكّرت وسرعان ما وصلت لعقال أمرهم، فأخبرتهم أنها جاءت تسأل عن ابني رستم لتبايع الحسن وتخدمه؛ لأنها أحبّت آل البيت ونذرت نفسها لخدمتهم حتى يدخلوا آمِل منتصرين.

لم تستقر النفوس لمقالها تمامًا، غير أنهم أخذوا بفرسها وذهبوا بها لجعفر بن رستم سيد القوم وأخبروه بخبرها، فتبسّم وأمر بردِّ فرسها فاليوم عيد، وأخبرها أن تأتي لبيته في أي وقتٍ شاءت.

نادى المنادي بوصول رجال الحسن، همّ القوم وتطاولت أعناقهم لرؤية الحسن بينهم أو على رأسهم، تدافعوا حتى تباينوا، ظهر أضعفهم في حال العيِّ والتيه، وقع مغشيًّا عليه، تجمّع نفر حوله يسألونه القيام فلا يجيب، تقترب منهم سيرين وتأمرهم برفع قدميه إلى أعلى، فعلوا ففتح عينيه تنادي الحسن، ينتظر استجلاب فهم ما حدث له، قام مستندًا على أحدهم وشكر القوم على حُسْن ما فعلوه أيًا كان.

كان القوم قد أحاطوا برجال الحسن وجيشه فرحين بقدومه، يتقدّمونه أجسادًا ويخطون معه رؤوسًا حتى باب المسجد، أتمّ خطبته وبايعه القوم على السمع والطاعة وإزاحة الظلم، كانت سيرين تائهة لا تعرف وجهتها ولا من تسأل.

اقترب منها السيد صاحب حُمْرة الوجه وقال لها في لطف:

– سيدي جعفر يدعوكِ لتلبية طلبك على شرطٍ منه ولكِ.

بانت على وجهها البلاهة المُتّشِحة بالخوف فأردف السيد:

– يطلب منكِ أن تداوي رجال الحسن المصابين حتى يدخل آمِل فاتحًا، ولكِ مقابل هذا ما تريدين.

(19)

يوسف على سريره كالقارئ الوديع؛ يقرأ رجل الكهف الساكن ويستسلم لفتنة صحته التي تناديه أن اقرأني وتعلّم أن تحبني، تشكّلت بلاغة يوسف وهو في مهب أنفاس الوحدة، باتت أسئلته تخف تدريجيًّا رغم ما أحاطه من مجهول. استفاد من تجربة يوم وليلة أن الأسئلة لا تتكاثر إلا في وجود آخر يفكر في الإجابة، تعلّم أن يكون هو الآخر، راقب أفعال الرجل فوجد العِوَج في حاله كلما شرب الخمر، لكن الرجل لم يكن يقرب منه على أية حال.

وجده وحيدًا لم يتّخذ عبدًا ولا تبنّى ولدا؛ ربما لأنه لا يستطيع كفاية نفسه، لم يتّخذ زوجة أيضًا أو ربما كانت له وما عاد؛ تركته أو آثرت الهروب أو الغياب، عندما يشرب تجد سربًا من البخار يتصاعد من فمه، ووقت ما يجلس بجانب يوسف تتعلّم منه كيف تكون مهيمنًا على الفضاء!

لِم لا يهدي أحدا إلى مكانه؟! أهو سعيد وحده في هذا الكهف الضيق؟! جدرانه خانقة! سقفه مضيء بلونٍ أحمر كأنه الدم، وقنديله لا يُشبِع اثنين ليلا، الكهف لا ينفع إلا مع رجل يحتضر وقد بلغ الحشرجة وعدّاها.

رغم ذلك لا يتعب نفسه، لا ينادي على أحد ولا يزوره أحد، حدّث يوسف أنه صاحب تجربة كان الفقد هو البطل فيها، سرح بخيالاته إلى أنه صَاحَبَ رسالة وما آمن به أحد، اختار العزلة وطرد أحلامه ما دامت تعكس الجحيم.

قضى يوسف ليلته يدعو ربه أن يعود سريعًا إلى بيته، إن كان وحيدًا هناك من وجع اللامبالاة وتأثير العاطفة الدامي وحب كل أحد وكل شيء إلا هو، إلا أنه لا يجد هناك السكون هذا والذي يليق بالمكان هذا.

قُبيْل إغفاءة كادت تُسيطر سَمِع همسًا بجانبه فنظر، رجل الكهف يرفع كفّيه ويناجي ربه، بعينٍ رآها شبه محمرة من بعيد، أن تكون روحه قلقة ويناجي ربه خيرٌ من أن يشوبه سيماء الفتور على جَمْر الجبال الصخرية وحطب الغابة العطرة وسقف الكهف الدموي اليائس هذا، وكان هذا مما زاد حيرة يوسف نحو الرجل كمحارب عدو للطبيعة عدو للفوضى يتصالح مع نفسه ويأسها.

اختار يوسف العزلة حتى يقدر على المشي، تنحّى جانبًا ومال بوجهه للناحية المظلمة من الكهف فزاره بحر الشمال في حُلمِه وكأنه ضيّق يتّسع جرّاء دموع والدته عليه، الدموع تمنح سحرًا لوجهها كما يُعطي البحر جماله للمشهد كله، تنعّم بحلمه واستيقظ على صوت رجل الكهف يناديه

– بني، يا بني، قم لتأكل.

نظر له غير مُصدِّق أن النوم غلبه في حضرةِ رجل لا يعرفه، استبان ضوء الشمس إذ يزور الكهف على استحياء، قرّب الرجل الطبق من مرقدِ يوسف وكشف عنه، التهم يوسف السفرجل والمشمش، عجِب من وجود المشمش في خريف آمِل لكن بعد انتهائه...

لو كان قادرًا لولّى فارًّا من هذا الوجه الساكت، ابتسم الرجل فجأة كطبيعةِ آمِل الصباحية وسأل:

– كيف أنت الآن يا بني؟

أجابه يوسف بحروفٍ تقتطع جزءًا من قلقه:

– الحمد لله بخير حال.

ردّ الرجل في الحال وهو لا يزال يتبسّم:

– عندما تستطيع السيْر سوف تصل بيتك، لا تقلق.

لا يدري يوسف لِمَ لم يستطع إخفاء قلقه، تعلّم أن الكلمات لا تصنع أفعالًا في الغالب، لكنه شكره، فكلمةٌ كحبل نجاة وعودة للوطن الأول خيرٌ من سكونٍ ووحدة وبُعْد عما يميل القلب إليه.

تشجّع يوسف وسأله:

– لِمَ أنت هنا يا عم؟!

ظلّت البسمة على حالها كرسمة بحجر الكُحْل، تحرّكت شفتا الرجل بقوله:

– فـي المدينة نسيان كل شيء إلا الرزق، تذكُّر كل عمل وفناء الرغبـة يا ولدي، و أنا لا أستطيع العيْش في بلــدٍ لا تقدر على الحب.

استشفّ الرجل عدم الفهم من سكوت يوسف أو محاولة للعودة لبادئ الأمر حيث اللاشيء، فقال بروية:

– هل تعلم قصة آمِل؟!

هزّ رأسه نافيًا كل معرفة:

– هل تريد أن أقصها عليك؟

أجاب يوسف في الحال أن ياليت:

– كان هناك شقيقان من أرض الديالمة هما إشتاد ويزدان، وكانا قد قتلا رجلًا من عظماء الديالمة المشهورين بالبأس ثم هربا إلى هذه المنطقة، كانت آمِل وقتها لم تُسمّى بعد، كانت غابة كثيفة مخيفة على شاطئ البحر، لا يُعلم أن سكنها أحد قبل هذين الشقيقين، نزلا الغابة ومعهما أهلهما، سكنا قُرْب عين جارية تسقيهم، أقاموا البيوت وعاشوا على ثمار الفاكهة.

وكان لاشتاذ بنت هي آية من الجمال واسمها شارستان مرز، جديرة بعرش الجمال؛ تعشقها العين ويريدها القلب ويهواها كل جميل، كأنها الطبيعة في ذاتها، وقلب الضياء إذا اشتعل، ونحتُ السماء إذا أطلّ البدر منها مُترجِّلًا إلى موكبها، الكل يتمناها ويملكها في منامه.

وكان هناك ملك يُدعى فيروز وكانت بلخ هي دار حكمه، في ليلةٍ كان تمامها البدر رأى طيف شارستان في حلمه ففُتِن بجمالها واستقرَّت في قلبه وخُلده أوصافها وملامحها، فما إن أشرقت الشمس حتى حدّث وزيره المقرب عنها، شغلت صورتها قلبه فما اسطاع أن ينساها، و إنما نسي حكمه وما عاد يتهم بأمور رعيته، زارته مرة أخرى فأصبح فؤاده وقد التهمه عشق طيف ليس بجواره، فقام عليه الحكماء و أنبؤوه أن العشق شغل القلب الفارغ، انزوى خوفًا ومرِض عشقًا، أحضروا الأطباء وما وجدوا فيه من علّة فقال لهم:

«ابتليت بالعشق وكثيرًا ما وقع للناس غيري مثل هذا النوع من البلاء، فكيف ألوم نفسي على ذلك، ولست أنا أول من صدر عن مثل هذا الحال؟!»

فاستدعى الوزراء لمّا وجد لا فائدة من طبيب ولا منفعة من حكيم، أخبر بأوصافها فانطلقت الرسل على ظهور النوق في البلاد فلم يجدوها، وكان مع كل خبر ينفي وجودها يزداد اليأس في نفس فيروز ويتحقّق منه الموت.

وكان له قريبٌ اسمه مهر فيروز، لما رأى حال الملك أخبره بعزمه على تولّي الأمر وتخيّر رجالًا أشداء لم يُخلقوا إلا للحرب وكأنها مهمة لإنقاذ المملكة من الموت.

سأل الرسل أي منطقة لم تطأها خيلكم ونوقكم؟ فأخبروه بنقطةٍ في طبرستان، ظلّ يجوبها ويسأل كل شاردة وواردة، لا يمل ولا يتعب ولا هو يجد ما يبحث عنه، كان يترك رسولًا في كل منطقة

لا يجدها فيها علّها تظهر، ظلّ على هذه الحال عاما ونصفا حتى استبدّ بفيروز بضع من اليأس من طول الغياب، وبدأت عيناه في الذبول وقلبه حبيسٌ بين جدران اللاجدوى، الأمل يحدوه مع كل صباحٍ نادٍ، ويعود فلا يُثْمِر فيذبل في ليلته تاركًا للظلام مهمته، و انزوى النسيان حتى اختفى، وارتقى الأرض حتى كان ملكًا على الملك فنزع منه تاج الصحة وخبّأه لحين عودة مهر فيروز.

بحث مهر فيروز وما كلّ ولا قلّ مجهوده، يمشي على شاطئ البحر وينظر في كل مكان حتى استقرت قدما فرسه وغاصت في البحر فهبط ومشى على قدميه، سار في الغابات والأدغال المقابلة لبحرِ قزوين وحده حتى وجد ماءً صفيًا نقيًا فتتبعه حتى وصل لرأس النبع، وعلى نحوِ ما جرى رأى فتاة على نفس الصفات المذكورة فحسبها جنيّة في بادئ الأمر وأشهر سيفه فأشهرت سيفها.

علِمت من يكون فأخذته إلى أمها، بعثت الأم إلى زوجها إشتاد وشقيقه، رحبوا به وضيّفوه، وكعادة الديالمة في زمنٍ مضى لا يسألون ضيفهم عن شيء لمدة ثلاثة أيام.

ثم لما انقضت سألوه فأخبرهم أنه ما جاء إلا للرياضة والصيد والتنزه وطلب منهم أن يخطب ابنتهم فأجابوه بالقبول وبعثوا معه شقيق شارستان.

بعث مهر فيروز للملك يُبشِّره بأنه وجد ضالته، فأمر الملك أن يبعث معه ذهبا ومجوهرات وثيابا مع هودج ومركب، فلما رأى ذلك إشتاد ويزدان عظّموا مهر فيروز وسجدوا بين يديه، فأخبرهم أنه لا يريد خطبة البنت لنفسه بل للملك فيروز.

تزوج فيروز من شارستان مرز، واستردّ عافيته وعاش مُنعّمًا بحبٍ كالحلم، أوليس بدايته حلم ونهايته تحقيقه!

صاح يوسف وقد لمعت عيناه وعاش في القصة كأنه أحد أبطالها:

– و أين آمِل من كل هذا يا عم؟!

– بعد قليل أخبرت شارستان الملك أنها تريد الإقامة في المكان الذي جاءت منه، فبنى لها قصرًا في نفس المكان كبيرا، وجاء معها الخدم وأسكنت أهلها فيه، وأحاط القصر بأسوارٍ مزخرفة مزينة مهيبة، وكان هذا القصر هو آمِل.

– و أين ذهبت الأسوار؟!

– اختفت مع نبت الظلم ووأد الحب.

ثم سكن الرجل هنيهة ثم قال:

– وكذلك اختفيت أنا.

نظر يوسف له كمن ينظر لجبلٍ ثابت باهت فوق السحاب علوه يطول حكايا السماء ويهبط لمشاهد الأرض، زاره وابلٌ من الأسئلةِ التي لم يجد لها جوابًا، وسأل أول ما سأل:

– هل تعلم كيف يقف الزمان يا عم؟!

(20)

وصل تمّام متأخرًا لبيتِ منصور، هناك في بهوِ البيت يرى سبعة انضمّ إليهم فأثمنوا، سلّم فردّوا في جمودٍ كأنهم نيرانٌ ثابتة تعلو آمالها وتنكسر قواها إذا فارت الدنيا، ترى أعينهم رُكّعا كلحظة أخيرة في العمر، ظهورهم منحنية كجذوع مغروسة وجاهزة للوأد، زاوية تمّام كعادتاه تقترب من الأرض ولا تتودّد لانفراجة يسيرة، كانوا ثمانية نفر يشبهون بعضهم إلى حدٍّ كبير؛ أسرى في معركة غير متكافئة ما بين أنفسهم والعيش المُتْرِح الشديد، المميز فيهم كان به بعضًا من السِمْنة وكثير من الحزن، رغم أن آمِل صغيرة إلا أنهم يجهلون بعضهم، كان التفسير الوحيد أنهم هاجروا وما ربحت هجرتهم ولا خلدوا إلى مُتْرَف العيش فكان لا بد من نهاية، تعجّب تمام من فعل معروف وكيف أدّب هؤلاء النفر وخضّب رؤوسهم بحنّاءِ العيش وزيّنه في نفوسهم بعد ما فقدوا العزيز وغلبتهم بنات صدورهم؟! كيف أقنعهم أن الموت ربما كان أهون والعيْش على أملٍ ضعيفٍ في حربٍ بين الجبال هو الحل الأخير لأتراحهم ودفن أحزانهم؟!

معروف دائمًا يعرف من أين تؤكل الكتف حتى وإن كانت مُطعّمة بكل قبيح، يتاجر في القُبْح وما أكثره وأربحه.

دخل عليهم معروف وسلّم على الجميع بإيماءةٍ مفعمة بالعجلة، أمرهم أن يركبوا الخيل ويُجذِموا في لا سيْر نحو ساري شرقًا، الحرب

على الأبواب والفرصة لن تأتي مرتين، ركب تمّام فرسه ولم يأبه لشعوره نحو معروف بأنه يعاملهم كبضاعة لا كرجال حرب، لم يفكر في الأمر كثيرًا إذ لو فكّر ستجتمع كل الدلائل في رأسه على أحقية معروف فيما يصنع، انطلق الثمانية ومعه عامل معروف يراقب البضاعة وأحوالها حتى يُسلِّمها، بين نظراتهم تجدهم قد تألبوا على كُرْه معروف واستحقار ما يصنع، في صمتهم الاستكانة نحو الكآبة إذ لا مفر مما صنعوا، بلدة فيها سوق بلا أسوار، جبالٌ وأشجار وبحر وعيون ماء؛ آمِل التي استقر فيها بيع الحرير والسجاد الطبري، السفرجل والمشمش في كل مكان، الحطب وصناعات خشبية، السادة العلوية وزياراتهم المتقطعة ونشرهم الدين والعلم في أرجاء البلدة، كل ذلك لم يستغله النفر أو اقتنصوا منه الفائدة، فكان حق على الخوف هتك حجاب قلوبهم وبالبؤس الطبع على قلوبهم كأثر الثلج المبرقش على قمة دمافند وجبال ألبرز أجمعين.

توجهوا نحو ساري، توجعوا للماضي، ضربوا بأرجل الخيل حيث لا مفر، وكما يُقال خرجوا كأنهم الأُصَل –الحيات الخبيثة– وعلى رؤوسهم البصل.

تكلّم أوسطهم يناشدهم التسلية فقال:

– تُرى من سيكون القائد في الحرب المُقبلة؟!

قال رجل في المقدمة وكأنه عليمٌ بالأمور جُلُّها:

– محمد بن أوس بالتأكيد.

ردّ عليه مشاغبًا يفتتح الكلام ولا يُؤمِّن عليه:

–ولماذا لا يكون سليمان وهو الأجدر؟!

أردف رجلٌ يتذيلهما:

– ثم أن سليمان هو عامل الخلافة على أرض الطبر!

قال الذي في المقدمة يستخف بقولهما:

– إن ابن أوس هو المُتحكِّم في الأمور، ودليل على ذلك أن أبناءه يعيثون في طبرستان ولا يردعهم شرطيٌّ أو قاضٍ.

– صدقت!

قالها عامل معروف ثم أردف:

– ابن أوس و أبناؤه هم رؤوس الأفاعي لِما بين جبالنا، لكن المصلحة تقتضي أن نملك نفس السم الذي في أحشائهم.

قال رجل يتتبّع الحديث وينتظر لمن تؤول إليه النهاية والظفر بالجدال:

– ثم إن سليمان فيه تشيُّع ولن يحارب الحسن.

سكت النفر عدا عامل معروف الذي غضب فجأة وصاح به:

– مثل هذا الكلام لا يُقال في صفوِ الجيش هناك، امحوا آراءؤكم، أووطِّنوها سركم وصدوركم، نحن الآن لسنا حُرّاس قضية ولا لنا من الأمر شيء غير المغنم.

خيّم عليهم السكون بعد ما بكّتتهم القضية وأبردت إليهم المعرفة بريدًا تقول فيه أنها لا تنفع إذا كان صاحبها قليل الحيلة، وكان في هذه الرحلة تمّام وقد اعتزلهم، مضى في ظل الجبل يتأمّل الصخور ويذكر صخرته الباكية المُبكية، يتّجه إلى الشرق ويحس في نفسه اجتلاب الحزن للدموع مرة بعد مرة، تيقّن أن الأمر ليس فقرًا ولا هو عيب في الكسل، بل أن سبيكة روحه قد صدأت وما كان لها الصدأ يوما، وأن عمره قد أوشك على التحطم بعد ما أجبرته قوة الدنيا على الانحناء، ربما سيبكي خوفًا من عذاب ما بعد الموت، وربما يبكي الآن على ساعاته التي باتت بلا فائدة، ربما وربما وربما، بلغ منه التعب وأثخنه فكره فتطلّع إلى السماء وهي تتأمّل نفسها في الماء، ثم وقع من على فرسه مغشيًا عليه.

لشدةِ استعجال العامل ألقوا بتمّام على خيلِ صاحبه القريب منه، وما كادوا ينطلقون من نقطة توقفهم حتى جاءهم أحد عبيد معروف يسعى ويخبرهم أن جيش ابن أوس قد سبقكم إلى شالوس من ناحية البحر.

ما كان لهم الخيرة فتوجّهوا ناحية شالوس، ما كان لتمّام التفكُّر، فحين يصحو سيعلم أن البلد التي أبته لاجئًا سيكون غازيها.

(21)

استخارت سيرين ربها ثم قبِلَت طلب رسول جعفر، عمِلَت على مداواة الجرحى من جيش الحسن، كانت ترى بأعينهم إيمانا غاب عن القلوب لفترة طويلة من الزمن حتى كاد يهلك مفهومه ويذهب مضمونه، ويحل محله الجشع والغلظة والتنعم بضرر الناس وظلمهم، سَمِعَت حكايا عن الحسن ومدى قدرته على التأثير في الناس، لم ترَه لكنها كانت قريبة من سماعه البارحة، كان على المنبر يخطب في الناس المؤمنة به وبخطواته المباركة، يؤمنون أن لو أمسك بالطين لصنع منه الذهب، وكيف لا وقد اجتمعت عليه القلوب فصنع من الطين الذي كان يحوط بهم جسدًا ذهبيًا من أملٍ وقوة وعمل وكلمة حق في وجه ظالم...

حكى عنه القوم وعن عنفوانه الذي تجتر معه القلوب، تتحمّس عنده الأقدام، تتصلّب الأيادي إذا حكى وإذا قرّر وإذا تحرّك لتنفيذ رأيه ومشورته، أحبه الناس لحبهم آل البيت، وأحبّ الناس عطْفًا وإيمانا، كان آباؤه وإخوانه وهو معهم سببًا في إسلام الكثير من أهل تلك الناحية بعد ما استعصت على الملوك من قبلهم بقوةِ السيف، فالقوة مهلكة بلا رأسٍ تُفكّر وتدبّر وبلا ذَنَب يُلملم الأخطاء وراء صاحبه، أما الإيمان والكلمة الطيبة هما الصفاء الخالص والتأثير النافع الذي يتماشى مع طبيعةِ القوم الذين يستأنسون الصخور ويُفيضون إلى البحر والثلوج.

تمنّت لو كان عبد الله هنا مع المؤمنين بما يفعلون، تخبره ماذا يفعل الحب! يُشكِّلهم كيف ما أرادت الطبيعة من رحابةٍ للسماء وعزلة للبحر وارتعاشة لشراعٍ صغير في الأفق حين يرى سِرْب الطيور التي يعشقها، لا مقاييس للنجاة ولا استنباطات للعيْش، فقط هي المبارزة ما بين عشق الأشياء والتوحد معها وفيها، لم تهذِ ولا استكانت لقبولِ هذا الأمر يوما، بل انتفعت من الجمود الذي أحاط بآمِل حتى آمنت بخطورة الأمل فوصلت إلى هنا.

بعد ما انتهت من عملها اليسير ودخلت نهايات النهار الخريفية على سماء شالوس، استعدّت سيرين لمقابلة جعفر كي تطلب منه ما جاءت لأجله، لكنها هذه المرة ستناشده الفضل الذي تستحقه، تبحث عن فرسها حتى تجد حاتم صاحب الوجه الشبيه بيوسف، سلّمت عليه غير زاهدة، مُقْبلة على الحياة كما رآها أول مرة، تسأل عن الأطفال الثلاثة فيطمأنها، تسأله:

– من سمّاك حاتم؟!

يجيبها:

– رجل من السادة العلوية كان سببًا في هداية والديّ للإسلام فسمّوني على اسمه.

ابتسمت كعادتها منذ خروجها من آمِل وسألت:

– هل رأيت الحسن؟!

ردّ بلهفة:

– وصافحته وقبّلت يده.

– صفه لي إذًا، كيف هو؟!

– طويل القامة به طَرَش خفيف من ضربة أصابت أذنه.

– كيف حاله؟

– جامعٌ لعلم القرآن والكلام والفقه والحديث والأدب، جيد الشعر، ملح النوادر، ناشئ على الزهد.

– وخطبته البارحة؟

– كانت بليغة الفصاحة؛ حذّر بالترغيب وقرّب بالترهيب وجاس خلال أدمعتنا بالوعد والوعيد.

– بايعتموه؟!

– على إقامة كتاب الله وسنة رسول الله عليه السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– ما وجهته القادمة؟

– يقول آمِل.

– آمل!

– نعم آمِل، ولكننا السابقون السابقون يا أمة الله.

آمنت واستقرّ في قلبها أن الخير آتٍ بقدوم الحسن، نسيت فجأة ما جاءت لأجله، قالت لنفسها تودِّع ما بها من همٍّ أن الفقر سببه الظلم وأن عدل الحسن الناصر للحق لآتٍ وسيأتي معه الفضل والغنى.

حكى لها حاتم عن الأمير جستان الذي انكفأ عليه الحسن ورجاله فقابله، آمن به جستان وأكرمه، فلما أخذ في مطالبة الناس بالصدقات خاصمه جستان وقال له:

– إنما أطعناك على أنك معلم مرشد، ولا طاعة لك إذا نازعتنا على ملكنا، فاقتتلا حتى ظهر عليه الحسن بفضل الله، ثم أتى شالوس بعد ما كتب لها كتابًا أرسله ليخبرهم بقدومه، وكيف أن جستان فاتتهم الصحبة، وخسروا الآخرة جرّاء عدائهم لرجلٍ من آل البيت.

نامت سيرين ليلتها في إحدى الخيمات مستقرّة أن الأمر يُورِثه الله لمن قُذِف في قلوب الناس محبته وتعظيمه، تُمنّي نفسها بالذهاب لآمِل في الغد مع جيشٍ محبوب منتصر، ذاك الرجل الذي لم تره بعد لكنها أحبته فبايعته واستبشرت به خيرا.

لكن القدر قد يُؤّخر تلك العودة ولو قليلا؛ إذ أن استنفار الجيش قد بدا في الصباح على أهبته، واستيقظت سيرين على صوتِ الرجال والفؤوس بين أيديهم يستعدّون لمعركةٍ وشيكة ضد جيش ابن أوس الذي أصبح قريبًا من شالوس على شاطئ بحر قزوين.

(22)

استرق عبد الله من هند موعدًا حين ما انشغل الجميع بأخبار ابن أوس وابن زيد، فإن كانت الحرب في جهة فالحب يجب أن يكون في الأخرى حيث يتزن العالم ولكُلِّ زاوية، فباب الحرب لا تدخله بغير زاوية الحب، وزاوية الحب لا تركن إليها إلا وأنت مُثْخن بجراح حربٍ مستعرة في قلبك، أو بساحات القتال، عَدا عبد الله نحو الجبل المُحبّب القريب الشاهد على ولهه وصبوته، يفكر في كيفية استثارة الكلمات كي تعجب بها هندته، وينبثق من تقرير اعترافه بعشقه رداءً من الجرأة بعد خجلٍ طال، وجِسْرًا يمتدّ ما بين القلبيْن من بعد انقطاع الوصل والوُجد واقتصاره على زاوية واحدة للحب يركن إليها، إنه يحبها وخير الكلام في الحب ما تدلّل في معانيه وما يخفيه، هوى في صغره وما ذاق طعم الهوى ولا الميْل، فعاتب نفسه على تقصيره في التعلُّم، انكفأ نحو قيدِ الفناءِ إذا ابتعد المرء عن ما يهواه، لام نفسه بعدها وغضِب فارتضت له نفسه العذاب بجاور من يهوى قلبه إليها بدلًا من وقوفه على الأعراف لا يهتدي إلى جنةٍ ولا يُلقى في نارٍ هي الشوق.

تصابى حولها مرة، اقتلع غِلاف قلبه وكاد يُقدِّمه قربانًا لها مرة وفكّر ودبّر مرات فما فلح تفكيره وتدبيره في اقتناص فرصة للاجتهاد في التعبير عمّا يدور بقلبِه ويفور، واليوم قد قرر اللحاق بركب العشاق وركوب نوق الكَلَف للولوغ إلى جنة العشق في بستان الحب.

سيقول لها ويقول، سيمضي بلا تردد، سيُخبِر عيناها أخبار الورد الذابل إذا تفتّح برؤياها، سيكتب على الثلوج ما نسيه صغيرا، سيُطفئ الحُرْقة بداخله ويتعلّق بغصنِ الشوق فيكسره ويصل إلى الوصب والاستكانة، وإن تقبل غرامه وهيامه ليكونن أسعد العالمين.

وصل ووصلت، تقابلا والتقت عيناه بقدِّها، فقز من على خيله الذي استأجره نهارًا وقال لصاحبه إنه ذاهب للقتال، لكن على الناحية الأخرى من الحياة، ظلّت هند على فرسها فأحبّ هذا المشهد وأشْهَد دمافند عليه، نظر لها وقال وقد أشفق على نفسه:

– أتعلمين؟ وددت لو أعرف شيئًا من الغزل كي أقول لكِ مثل ما يقولون من جِنْسِ الكلمات بنفس التراكيب على مرّ العصور؛ تارة أشبِّهك بالطبيعة، وأصف ضحكتك كفراشة تُحلِّق وكل جمال الطبيعة وسحرها على جناحيها، أتمنى لو تخفضين جناحك لي ولو لوهلة، أن تنظري لكلماتي العاشقة ولو لساعةٍ من الزمان؛ تختصرين فيها الأبد كله والأزل كله ومعاني الساعات كلها، لكني لست هذا الشاعر الذي يتقوّل بالغزل.

تفصّد جبينه بالعرقِ ولم تستخلص عيناه موضع الرد في شفتيْ هند التي استمعت كما الجبل الشاهد، أردف عبد الله ناطقًا بما تحويه نفسه:

– كنت أتمنى لو أحفظ تشبيهات مُستهْلَكة، فأقولها وأعتبر نفسي قد أدّيت واجبي تجاهك، و أني أغرقتك في بحر كلمات لا شاطئ له ولا مرسى، لكني أعتقد أني لو قلت أنكِ تشبهين الشمس في ضيائها، وأن القمر يغار منكِ، وأن السحاب يبكي حين تبكي،

وتنفرج أسارير الكون حين تضحكين، لو قلت كل هذا لن يشفع ولن يصل شعوري، فأنتِ أنتِ يا هند.

ارتجفت حين ما ذكر اسمها، كأن القول لم يكن لها منذ البداية، الفرصة لم تحِن لردها فأكمل راكضًا بالكلمات:

– ربما لستِ مثل الشمس، ولا القمر يغار منكِ لأني أتصوره لا يعرف من هي هند! لكن ما أنا مؤمن به هو أن هناك رجلًا يودّ لو أن القمر يشهد على حُلْمٍ تكونين فيه وحدكِ، حتى هذه الجملة قيلت من قبل بالتأكيد، لا ضير، ربما لا أعرف غير تلكم الجُمَل، لكني أشعر فيها بالمبالغة، فأنتِ أنتِ ولذلك... أحببتك.

لم تتحدّث، سكت عن الكلام، احمرّت وجنتاها، تسوّل ردًّا ولو كان الغضب فما وجد، فغرت فمها وكادت تنطق بشيءٍ ما، انتظر ما ستقوله وهزّته ضربات قلبه، انكفأت دمعة على خدِّها غير معترفة بما جرى، أحسّ بضيقٍ لدمعتها وكاد يعتذر، تحرّكت فرس هند بسرعة نحو طريق العودة، ركِب فرسه وانطلق خلفها يناديها أن يا هند انسِ ما قلته وامحِ ظنونك، كان فرسها يُسْرِع في ركضه حتى تظنه يقطع بحرًا قد قَرُب شاطئه، ومن خلفه فرس عبد الله يحاول استدراك الأمر أو استكشافه، لا يخاف إلا أن تكون دمعة هند حزنا لا لشيءٍ آخر، انزلقت قدم الفرس فطارت هند لوهلة، ثم ارتمت بين أحضان الصخور الثلجية، صرخ عبد الله صرخة هزّت أرجاء روحه غير مُصدِّق، نزل من على فرسه يركض نحوها، واقعة على وجهها، انطفأ قلبه وتوقّف إدراكه حين اقترب منها، هند يا هند، وجد السائل الأحمر يترنّح خجلًا من تحتها، قلَبَها فما وجد وجهها إلا وهو مختبئٌ خلف الدم، بكى وصرخ ثم حملها بين يديه وأركبها

فرسه ثم انطلق بها، لن تموتي يا هند. الجحيم هو غياب فردوسك، الحياة باختصارها أنتِ، ظلّ يركض ولا يعرف أين ذهبت آمِل؟! يركض بين صخور يجهلها، ينظر ما بين الفينة والأخرى لوجهِ هند علّها تناديه، يمسح الدماء بيدٍ وباليدِ الأخرى يمسك لجام فرسه، يسمع صدى صوت العالم وهو يخبره بموتها لكنه يأبى، فيركض طاويًا كلمات العالم بإنسه وجنه وبحره وبره وأرضه وسمائه، وكل من شهِد عليه، لن يعترف بموتها، هي لم تمت، لا تزال حيّة، سيعيش معها، ستحبه كما أحبها، لن يفترقا.

اقترب من دخول آمِل ناحية الغرب، أسرع فالوقت يمضي ولا وقت بدون هند، يراه فارسان من فرقة استطلاع تابعة لجيش الحسن، يشهران سيفيهما، يصرخ فيهما أن هند يجب أن تعيش، يحاولان الإمساك به فيهرب ناحية آمِل، يركضان خلفه يخافان أن تكون خدعة من أتباع ابن أوس، يركض بأقصى ما يستطيع، يُعبّأ حنجرته ثم يهوي صارخًا مُتأوّهًا يريد أن يهب الصخور والرياح والثلوج طاقة كي تتعاون معه في إنقاذها، يُمْسِك باللجام أكثر حتى كادت يده تُدْمى، يتجمّد الدم بين يديه الأخرى فلا يُصدِّق أنه لا يسمع أنفاس حبيبته، يقترب الفارسان فيصرخ فيهما أن يساعداه، يصرخ أحدهما في الآخر أن معه جثمان امرأة، يسمعه عبد الله فيصيبه الجنون أو شيء منه، لم تفارق الحياة... هند لم تفارق الحياة... اسمع، الريح تُخبّئ صراخه، الجواد يركض ضاربًا الأرض بما تبقّى من أمل؛ الأمل هو أخطر وأنقى ما تبقّى لعبد الله، خانته أقداره وما حواه قلبه، سكت دماغه عن العمل فتوقّف بفرسه فجأة، تطلّع للفارسيْن اللذين اقتربا منه في حذر، ترك اللجام من يده اليسرى ونظر لهند، مسح الدم عن عينيها، ثم ما كانت فيه من قوةٍ للحذرِ من القدر فلحقه أحد الفارسين قبل أن يسقط مغشيًّا عليه.

(23)

أفاق تمّام من إغمائته بشكلٍ مفاجئ، سمع صوت موج البحر يهذي، يتطاول عنقه ليرى أين هو؟! على شاطئ بحر قزوين، قُرْب آمِل، ما الذي جاء به إلى هنا؟! ينام على فرس غيره، ذاهبون ناحية الغرب، الشمس ساطعة والكلمات ذابت مع أرواحهم، أغار عليهم التكلف وزادت على تمّام ملامح الحيرة فطفحت بسؤال:

– إلى أين؟!

– إلى شالوس كي يسلموننا.

– إلى جيش ابن أوس الطامح إلى هزيمة الحسن هناك في هذا الصباح.

قالها أوسطهم يفتتح الكلام كعادته، تأفّف العامل ازدراءً وتعبا، أخبره أسمنهم:

– مالك يا رجل؟! ألا تستمتع بسوْقِ أنعامك؟!

لفظها كرجل قد كسب ثروة طائلة من لا شيء فبات لا يقنع بالسكوت، يريد بكلماته أن يكشف النقاب عن موضع الذل الذي انغمسوا فيه، أجابه القوم كعادتهم بسكوتٍ غير مُبْهَم، من السهل تفسيره ثم وأْدُه وقراءة الفاتحة عليه بعد أن يترك جُرْحًا غائرًا في

أنفسهم، رجّ أوسطهم الفرس ناحية الشاطئ فتبعه الخيل وأصحابها، وقفوا قليلًا لا يدرون فيما وقفوا، نادى فيهم العامل فما أجابوه، وجد أن لا فائدة، فانضم إليهم وبادر بالنزول عن جواده والجلوس أمام البحر، جلسوا مُصطفّين وقد كان آخرهم تمّام، لا وقت للانخراط في مجموعاتٍ تافهة وعلاقاتٍ تنتهي بانتهاء موسم الحرب، قال رجل منهم تميل بشرته إلى السواد.

– اتفقنا على ساري لا شالوس، فلما اتخذتم هذا القرار؟!

قال أوسطهم:

– ولِمَ لم تتفوّه من البداية ونحن بصدد التحويل؟!

– ربما كان نائمًا يلتحف الغفلة.

– أو صائمًا يتّقي الكلام.

– أو أن كلماته تُبَاع فهو يزهد في خروجها.

أحاطت به سخرية القوم ودأبهم على مواصلة السّخف إذ لم يجدوا غيره صالحًا للقوْل.

تتبّع تمّام قوْل صاحبه الأول وقال:

– لن أبرح مكاني هذا حتى يعود الجيش إلى ساري فأنضم له، أما غير هذا فلم أتفق عليه، والأجدر عندي أن أعود إلى آمِل، فهي أقرب إلى قدمي وقلبي من موضعٍ مجهول لا أرى نفسي فيه.

– والحاجة؟

– سُحْقًا لها، وسحقًا لكم أيها الـ..

سكت هنا هنيهة ثم أراد أن يُكْمِل فما تجمّعت الكلمات ولا ردّ عليه أحد، عجيب أمر هؤلاء النفر، تسكتهم كل كلمة رغم أنهم جرّبوا ذل الكلمات ومرارة الصمت آلاف المرات ولا يزالون في كل مرة يختارون الصبر بدون صوت لحيواتهم.

سمعوا صوتًا من بعيد وجلبة فانتبهوا، ناحية الغرب هناك من هو آتٍ مقابلًا للشمسِ راكضًا هاربا، الخيل تتكاثر والوجوه مكفهرة والخَطْب ليس هيّنا، جيش ابن أوس قد فرّ مهزومًا إلى ساري، وأما تمّام فأُسقِط في يده لا يدري ما يصنع.

(24)

أمست أيام محمد شبيهة بحلم اليقظة، يرى نيران حكايا القوم في صدورهم والمياه المُجَمّدة للأفكار بعقولهم، الأجساد شفّافة والهواء الراكد مُخضّب بالآمال، أخذ السوق حمّام كسل وقبع معظم رجاله في البيمارستانات القرية، الكل ينتظر الحسن يأتيهم بعطر الرغبة فينشره بوجوههم فلا يجدون في أنفسهم الحاجة إلا لِمَا يتوقون.

بدأ اكتشاف شعور جديد في حياته، يمط أحلامه ولا يتركها إلا وهي وهانة واهية عُرْضة لسيماء الأحلام السوداء؛ إنها الوحدة، بعد ما ترك أهله البيت فارغًا وانشغل كُلٌّ منهم في أمره وهدف المرءُ فيهم هو جَمْع أهل البيت على السرور، فقرروا المغادرة كالمريض يتألّم بشدّة قبل الراحة، لكنك لا تعلم أهي راحة الموت أم راحة الشفاء!

وكذلك الحال في بيت آل تمّام، لا يعرف أحد ممن غادر أهي مغادرة الفراق الأخير أن أن هناك ما سيجمعهم؟!

باتت جدران البيت تتحدّث لغة صامتة، تُهدْهِد الدفء كي ينام بين أحضانها، لكنه يخترق الغسق بلهيبه خارجًا من آمِل حيث لا أسوار ولا أريجٌ بالغ الخفوت يبقيه كعقلٍ جلبته شهوة.

سأل محمد عن يوسف بعد ما أثّر اختفاؤه وأصبح غير مُفسّر.

طاف بالسوقِ سبعًا يمضي بالبديهة وبالنظر، فلا يجده. سأل المارة وأخبرهم صفته، في المسجد بعد الصلاة يناديهم بصفاته، تراقبه الجاريات المائلات وتسأله عن يوسف هل وجده؟! لا يُرِدن غير التقرب من الشاب الجميل صاحب الكلمة والإنشاء.

لم يره أحد، لم يسمعه أحد، دُفِنت أسئلته ورحابتها، راقب العيون التي تراقبه فأُغلِقَت على تساؤلاته دائرة مسنونة، سبّه القوم بقلوبهم لانشغاله بشيءٍ غير قدوم الحسن، كانت آمِل كعالم محصور يحبس حلما، وكان محمد مليئا بالنفور من هذه البلدة، لا يُقْعِده فيها غير الحاجة إلى رؤية الأهل قبل المغادرة، ولو كان الأمر غير متاح؟! فليُغـــادر.

دخل البيت صباحًا بعد ما ملّ البحث، النوافذ الكئيبة حيث يخط الثلج رداءه، لا دروب ولا أعشاب ولا أشواك، لا يوسف ولا عبد الله، لا تمّام ولا سيرين، ولا محمد هكذا، كل هذه الوجوه المتجهمة لم تبدِ أي يأس يومًا حتى سمحوا للأحلام بالدخول لبيتهم.

تجهّز لسفره، غادر البيت ولم ينظر خلفه كما أنه لم يسُب، ضوء وحدته المتصاعد زاد من وهج الحياة فردّها تحت سطوة الهروب والتحليق؛ قرّر أن يكون طيرا.

أسهل أن تجد وسط البهجة الكونية كائنًا محزونًا من أن تجد وسط الكآبة العامة شيئا من فرح، ولذلك خُلِق المهرجون والشعراء

المُكلّفون بإضحاك الملوك وإمتاعهم وقت الضجر وتأنيب الضمير، غادر وفي نفسه العاجزة قرار بإنجاز أبسط الأشياء وأكثرها ضرورية؛ أن يكون نفسه، لربما تواتيه الشجاعة في لحظةٍ معينة للقيام بأكثر الأفعال عبثية وخطورة في نفس الوقت؛ قوْل الشعر.

غادر أسوار آمِل الموؤودة على قدميه لا يرى عليه أثر الندم، آمِل ما هي إلا لعنة.

سمع ركضًا للخيلِ من أمامه، رأى طليعة جيشٍ هدّه النصر، لم يأبه كثيرا، حاول الاختباء لكنهم رأوْه وهو يركض بين الصخور، أمر أميرهم بالإتيان به حيّا، ساعة وأصبح بين أيديهم، لعنة آمِل لم تتركه بعد، أمروا بحبسه لحين البتّ في أمره أمام الخليفة الحسن بن زيد.

(25)

قُرْب الانتصار على ابن أوس اختار الحسن فرقة تدخل معه آمِل قبل نهاية الحرب، كان الحسن من نوع الطاقة الذي ينفجر للحصول على ما يطمح، يغض الطرف عن الأحداث التي تزعجه، وساعده في ذلك طرشه.

كانت سيرين من بين الفرقة الأولى التي اختارها الحسن ربما لأنها قريبة من آمِل، ودخولها خلف الحسن سيكون له التأثير وفحاوة الرسالة المرجة، والاعتقاد بأن النصر حليفه من البداية يدفع الناس بلا وعي لتحقيق ما يريد.

رأته سيرين أخيرًا وكانت مفتونة بما يفعل، كما وُصِف لها كان، وزادت من عندها ضجّة طبيعية خُلِقت حوله لتؤمن بكل ما يفعل، الرياح والنار والتراب والماء، وكل ما خُصّ بأنه أصل الطبيعة كان أصل الضجة.

انطلقوا يقبضون على كل رجل كان في طريقه من آمِل إلى شالوس أو أي بلدٍ آخر من الجهة الغربية، ينتظرون حتى وصولهم آمِل ليروا ما الذي كان ينويه المسافر بسفره في هذه الساعة؟!

اقتربت الفرقة من آمِل وكل ما في سيرين من شوقٍ قد اتّقد بعد جمود مثلّج، قبضوا على أحدهم ومعه جثمان، جاءوا به إلى سيرين مغشيًا عليه أو يكاد فعرفته على الفور، عبد الله الذي استجمعت إرادته البائسة كي ترتعد أطرافه ويبكي ويغض الطرف أمام نظرات القوم له كأنه الجاني والقاتل والمُقامر بحياةِ من أحب، كان وقوع سيرين بشِقٍّ إرادي تمامًا، مرّت بدقيقِ أصابعها على رأسه تمسحه، أخبرت الجميع أنه ابنها بعد ما اشتعل الشوق والحماس، فاحتضنته فأفاق يهذي مُستغِلًا شعلة الدفء التي زارته.

كان يتحدّث برجفة زجاج مهشّم، لم تستطع الأم تمريضه، ولا هي منعت نفسها من البكاء، توقّف البعض للمشهد وسألوا الحسن، فأمر أحدهم بها وبولدها أن يوصِّلها إلى بيتها فوْر دخولهم آمِل.

دخلت آمِل وفي أحضانها ولدها، ذاهبة لبيتها تصنع من طريق العودة كيمياء طبيعية وبيمارستان أمومي، ومن الطبيعة طب وصيدلة كي تضمن التئام جرح لا تفهم كنهه... وصلت البيت، اعترتها رجفة غير مُعْدِية، تحاول أن تُبْقي على قوتها إذ هي قابلت من لا تريده ولا تأباه، حمل الفارس عبد الله وأوصله إلى سريره، شكرته سيرين ووعدته بالعودة، احتضنت ابنها مُقتبسة الانكسار، تصبر كل طرفة عين علّها تهتدي إلى جوابٍ من عبد الله، ترجوه أن يتفوّه بشيءٍ يُريح قلبها.

ينظر لها بعينٍ احمرّت من البؤس لا تتوقف عن السماح للدموع بالمرور، ينهار سد قلبها الذي ما عاد يُطيق آمِل، تتسائل عن هدوء المكان، وذهبت لإحضار كوب ماء خشبي لابنها، يشربه لاهثًا ولا يُكْمِله، كلما أراد أن يسقي حلقه وصدره بكى، فتحوّل لطفلٍ لا يحتاج سوى

ثدي أمه كي يكتم احتياجه أو يغتال حزنه، لكن ما عاد ذلك ممكنًا إذ أن كل شيء كان له معنى قد مات أو اندثر، سألته مستنجدة:

– ما الذي حدث يا فلذة كبدي؟! بالله عليك أجبني، محمد، يوسف، أنا حتى! ماذا حدث؟!

لم يرد، فقط توقّف عن البكاء، تمنّت سيرين لو ترشو الأماكن والأزمنة لتريها ما حلّ بالبيتِ في غيابها، لماذا تركته من الأساس؟! خياله وما فعلته الشياطين بأفكارها لا يموت ولا يفنى ولا يُستحدث لخير، مصيبة تتلوها أخرى، نام عبد الله كرضيع يرتوي السقم، يلتحف الصدمة، تنتصر عليه الرهبة، أدركت سيرين أن خُلُو البيت وراءه حدث جلل، ما كانت تعلم أن دخول الحسن هو الحدث، أسرعت تطرق باب صديقتها وجارتها، تسألها:

– ما الذي حلّ بأهل البيت؟!

تقص عليها الجارة ما نما إلى سمعها، وما زاد من تلقائية حدسها، تمّام قد غادر، محمد قد غادر، ويوسف.

قد سمعت ما فيه الكفاية لتعيش على مهمة جديدة، لن تسامح تمام على مغادرته وترك أولادها، لا ينفع كأب ولا يصلح كأم ولا يشبه إنسانا على أي حال، عادت لبيتها وقد زادها الانكسار قوة، وعملت بها الأخبار حتى استوت على صخرةٍ أمومية قد فقدتها لأيام، فتحت باب بيتها، ورأت ما كان يستحق منها العناء؛ الصغير يوسف يجلس في فناء البيت هادئًا كأنه يكتشف الحياة من جديد.

(26)

– لماذا تريد أن يتوقّف الزمان يا بني؟!

– حتى تتوقّف القطط عن أكل اللحم الذي تُخبِّئه لي أمي من عينيْ محمد.

– رأيت فيها الرداءة ولم ترى فيها جمال عينيها ولا طيبتها وقُرْبه من بني البشر.

– أريده أن يتوقّف حتى أقطع ألسنة الشعراء، وإزعاج دماغ أخي محمد، فهم لا يتوقفون على القوْل، والمدح، وصُنع الأحلام الآفلة، والأصنام المعبودة، وضَرْب جدار الحق بفأسٍ ذهبي.

– ألا تراهم يُطرِبون الصبر ويُمجِّدون الرضا ويُعلِّمون الناس قيمة الشكر مع علو الطموح.

– أريد أن تتوقّف الجاريات عن الميْل إلى حرق الطعام وتخريب حاجيات أسيادهم وغنائهم للحب الذي لن يأتي.

– يأملون أن يبتسم لهم القدر وتحنو عليهم الرجال ذي الأيدي والبصائر، يتوقون للحرية وهي قمة جبل حيواتهم إن رأيت واعتبرت.

– أريد أن تتوقّف الدمعات عن الجريان.

– ألا ترى لمعتها ما بين العين والفم، كأنها نجمة دارت بالأفلاك واستقرت على الأرض تهبها الهدى.

– أريد أن تتوقف الخيْل عن الركض نحو الدماء.

– لن يجعلها ذلك سلعة تُباع كي يحظى البشري بشعور الجدوى والمباهاة، لن تجدها في وصف الشعراء للمجد وحب الناس لرقابها، لن تجدها ووقتها لن تجد وقت للحلم، فالخيل خير.

– ألا تتوقف السرقة؟!

– ربما اللص يمتلك من الطيبة أكثر مما يمتلك الخليفة، وتقبع في نفسه الحاجة فيرفض أن ينزع يده من بيوت الناس، وجود لصوص البيوت ضروريٌ لوجود الكرم واستمرار لصوص الدروب هو خيرٌ لمن يحلم بالخلاص.

– ألا تريدني أن أتوقف عن الكلام الآن؟!

– فكّر وامضِ ولا تبالِ، تعلّم ولا تتوقّف، فالزمان خادمك إن أردت.

– أريده أن يتوقّف يا عم.

– لماذا يا بني، لماذا؟!

– أريد أن يتوقّف العشق عن انتهاز الفرص للتحطيم، تتوقّف المسؤولية عن تسلّق جبال الظلم، يتوقّف الشاب الذي يركل كلمات أمه، يتوقّف الموتى عن زيارة أقربائهم في الأحلام، يتوقّف المجانين عن تعريف الناس قيمتهم التي ضيّعوها، يتوقّف العجائز عن السلطة وتجريب ردْع المستقبل باستقبال الماضي

في بهوِ بيوتهم، تتوقّف النساء عن الحمل والإتيان بظُلُماتٍ جديدة، يتوقّف عن الحياة والحيوات عن الموت.

– وما الذي يعود إليك إن توقّف الزمان ساعة من نهار؟!

– ربما أفهم شيئا.

كانت هذه آخر كلمات يوسف قبل أن يسأل رجل الكهف:

– لِمَا لا تخرج يا عم؟!

– لأني أدّعي فهم الجانب المشرق الضئيل في هذا الكون، جرِّب يا بني أن تُوقِف الزمان، لربما تفهم بحق الجانب الذي لا أراه، لكن عليك أن تُجرِّب أولًا إيقاف الزمن الخاص بك.

أخذها من فم رجل الكهف الذي نسي أن يسأله عن اسمه، مضى يوسف لبيته وقد خرجت أسئلته من تلقاء نفسها، وتحوّلت إلى أجوبة وتجارب مُحتملة، يوهم نفسه أنه يستطيع، يُصدِّق أن الليل والنهار يحتاجان لخيطٍ غير مرئي ليتوقفا عن الدوران، يعتقد أن حياته ستبدأ وأن رحلته الزهيدة قد تكون في موتِه؛ الزهد الأكبر في الحياة.

عندما عاد للبيتِ كان جامدًا كجلمود الصخر إذا هبّت به الأمواج تأكله لطمًا، يحافظ على هيبته وصرامته، لم يكن يومًا بهذا الصمت ولكن رجل الكهف أعانه على زهد الأسئلة، دخلت عليه سيرين فاحتضنته كابن عاق عاد لتوّه من رحلةٍ تعلّم فيها قدْر أمه وفضلها، أحسّت فيه بأسًا حسبته ميْلًا إلى اللوم فقالت:

– لقد عدت يا يوسف، أنا، أمك، أخوك عبد الله في حالةٍ يُرثى لها بالداخل.

عيناه تنظران لمدخل البيت كأنها تنتظر عاصفة وشيكة، أردفت سيرين:

– مالك يا يوسف؟! ما الذي حلّ بك؟! أين كنت يا بني؟! و أين محمد؟! سوف أذهب للبحث عنه، لا تتحرّك من مكانك، وإذا احتاج عبد الله لشيءٍ لا تتأخّر عنه، سآتي بمحمد ونجتمع الليلة، لن أتأخر.

تركته وقلبها يتمزّق على حاله، كانت قلقة على محمد وتحتاجه لوقوفه بجانبها، تسأل نفسها لِم لم يتوقّف الزمان لحين عودتها؟!

أحسّ يوسف بالخوفِ يُطمئنه، جلس وحيدًا يسمع تقلبات عبد الله وكابوسه، يأس تمامًا من عودتها، ثقبٌ استقرّ في قلبه فآلمه، فزاره في حلمه يستصرخه.

لا يزال الوهم يعمل في قلب يوسف مُتربّعًا على عرشٍ من الجمود، يضرب عبد الله الأرض بقدميْه كالمقيد بسلاسلَ منذ ولادته، يخرج من غرفته فلا يجد إلا يوسف، يُحرّك يوسف رأسه ببطئٍ عنزةٍ على وشك الموت غارقة في دمها إثر معركة كانت فيها الضحية، يجد عيني عبد الله قد جفّت وكأنها لم تبكِ يوما، جفناه قد استقرا، وجهه قد تقلّب كفصول السنة، ثم هدأ كموج البحر يلتئم من بعد شقّه لنصفيْن...

أدار يوسف رقبته حيث مدخل البيت مرة أخرى ولم يسأل، تأقلم عبد الله على السكون كأنه في بطن أمه، توجّه نحو الباب، فتحه ومرّ بعينيه على الطبيعة في الخارج، ثم صفق الباب خلفه.

حاول يوسف إنهاض وهمه لمرحلةِ التيقن منه، إيقاف أفكاره نحو العائلة، الزمان، اللعب، العمل، العلم، الشعر، وضرب على أجداث فكرة الموت فأيقظها وحاول مناداتها، يحاول إيقاف دمه، يسند قلبه بكفِّه حتى لا تؤلمه أحداثٌ تتلى وتروى أمام ناظريْه، وقّف مشاعره وحربه، غضبه وأعصابه، دروبه وأسئلته، ارتباكه وارتعاشته، أحسّ بقيمة الزمان تتضاءل حين ما بتت الصور تختفي في مخيلته ويصيبها الخفوت، حتى أظلمت الدنيا من حوله.

ثم سمع صراخ جارته فجأة.

(27)

كان يُخفي محمد وجهه منذ دخول آمِل بين يدي فُرْسان الحسن، الاستقبال كان مهيبًا، سوقٌ بلا أسوار لا يرفض الغادي والرائح يستقبل سيده الغائب منذ زمن مضى، أُخْلِيَت بعض الدكاكين ليتم زجّ المقبوض عليهم وعُمّال ابن أوس وسيمان وابن طاهر وبني العباس فيها، أُلقي بمحمد في أحدها بعد رفضه الاستقرار في بلده، كأنها تعاقبه، تُقبّله على جبهته بطريقتها ثم تُؤدِّبه إن حاول تركها، كأنها ضمة القبر ما بين الحنين واختلاف الضلوع.

ضرب كل شيءٍ حوله، كسّر ما طالته يداه، أطفأ القناديل وعاش في الظلامِ فاستكانت أعصابه قليلا وجلس على الأرض ينتظر، قامر بمستقبلٍ غيبي مرة بسكوته ومرة بتحركه وما بينهما قرارات لم تكتمل: خائبة، مُتردّية، لا يعي أصحابها أنا المال واحد والسكين واحد، والوقت يمضي ولا يتوقف...

هل لعنة الشعر أم لعنة آمِل؟!

ظلّ في حبسه فترة كانت دهرا، أحسّ ببياضِ شعيرات بعدد الفرص التي فاتته، انطفأ ظلام الدكان فجأة عندما فتح الحارس الباب، أخذه فقيّده بدون بادرةٍ منه للتحرُّك، خرج على الناس وهم في موجٍ مُتفرقٍ في صفّيْنِ ينهشونه بنظراتهم كالموتى إن عادوا، تقدّم بدون أن يقرأ العيون

هذه المرة، كان يعرف ما فيها، كُرْه، شك، بُغض، جنون، فرحة، شماتة، ترقُّب، وبعض من الجهل لا يضر، في الساحة كان الحسن بعدما أخذ البيعة وجلس يحكم في القوم كسيد الأزمنة ومُدَبِّر أحوال البلاد بحق، لم يؤمن محمد، وكان هذا عين الخلاف بينه وبين أبي الفضل، لم يُصدِّق سوى في الكلمة وما تفعل فقـط، حتى البيعة كانت كلمـة، الأمر الآن اختلف، ليس حُـرًّا ليقول ما يشـاء، فقط ما يُمليه عليه المأزق، لو كانت البيعة مُقابل الحرية وتركه وشأنه فليكن، الفقر يتبدّل بين يوم وليلة بواسطة رجل؟! لا، الفقر ملازم للطبيعة لن يفنى أحدهما قبل فناء الآخر.

اقترب محمد من دائرة الحسن حتى ما عاد سوى أربعة أقدام وقيْد واحد، يجلس الحسن على كرسي خشبي تتوسطه قطعة من جلد الماعز، كالملوك، يفترش القوم أرض الساحة بسجادٍ طبري مُزخرف برؤوس أسود ثلاثة، تقدّم أول الرجال واقترب من أذن الحسن يقول:

– معي رسالة من جستان يا سيدي.

أشار له بأن قد سمِع مقالته، وأمره بأن يُكْمِل:

– يريد التوبة يا سيدي الناصر، ويقول بأن بين يديه أموالا ورجالا، يسألك المجيء ليكون خادمك المطيع.

نظر الحسن وقد ضيّق عينيه، سأله أين الرسالة، فأعطاه الرجل إياها، أخذها ووضعها بجانبه على الأرضِ وأشار للفارسِ أن يسمح للتالي بالدخول إلى حضرة دائرته.

كانت عينا سيرين قد وقعت على قيد محمد، عَدَت إليه وأخذت قيود يديه بين ذراعيها، حاول الحراس منعها رغم معرفتهم بها، فأحدثت جلبة وصرخت علّ صوتها يصل للحسن:

– إنه ولدي.

كان الرجل السابق لمحمد في الدخول هو أبو الفضل، عَرفه محمد منذ باية موقفه، لكنه لم يُرِد لفت انتباهه، استدار أبو الفضل لسيرين وقال بحزم:

– ماذا يشفع كونه ولدك بأنه عدو لولي أمرنا؟!

قام الحسن غاضبًا وصاح:

– لك حاجة يا هذا قلها ولك الأمان، أما أن تُخطِئ في من سبق بالبيعة وقدّم الخدمة فليس لك إلا قيد أشد.

صبغ أبو الفضل كلماته برقة غير معتادة حيث قال:

– سيدنا وابن سيدنا وحفيد سيدنا، ذهب عقل من جهلك وجهل محبينك الكرام، وأنتِ يا سيدتي أعتذر لك عما بدر مني من خوفٍ على مقام سيدنا وحب له والله.

نظرات بُغض أحسّ بها أبو الفضل آتيةً من عينيْ محمد تلتهمه، لم يسمع الحسن بعضًا من كلمات أبي الفضل فأمره أن يقترب، وصاح بسيرين أن لا تقلق وعليها الانتظار، اقترب أبو الفضل وهو يمدح الحسن بكلمات غير مسموعة، متباينة المعنى واللفظ على أذنيه، لكن تسمع آخر ما تسمع:

– أفلا يسمح سيدنا ببناء أسوار آمِل الفانية كي نحمي سوقنا وأموالنا؟!

قام الحسن مرة أخرى، واقترب من أبي الفضل، فربت على كتفه حتى بثّ القلق في نفسه وهو يترقّب ما قد يُقال، ثم صاح الحسن في الناس:

– إنما أتيت أيها الناس لتخريب الظلم، وليس لإقامة الأسوار، اذهب يا هذا فابنِها أنت.

ثم أشار مُسْرِعًا للحارس بتقديم محمد وقيده ووالدته.

تقدم محمد وسط نظرات هازئة من أبي الفضل، نكران الناس لفعلة محمد المجهولة، يتمسّحون في الحرية ويكرهون مشاهد القيود، رسم الحسن على وجهه أمارات الغضب وقال:

– إلى أين كنت مسافرًا إذًا؟

ردّت سيرين مسرعة خائفة متلهفة:

– كان يبحث عن أخيه يوسف، كان تائهًا و...

أشار لها الحسن فأسكتها وقال:

– ألا تعلم أنك قد وضعت نفسك موضع شك، بعض رجال ابن أوس وعُمّال سليمان هربوا قبل ساعة من وصولي، و أنت؟! والدتك أتت لتخدم جيشي بكل حب وفضل منها، و أنت، تتركني وتغادر بيعتي؟! ما اسم هذا وصفته في كتاب عقلك؟!

فتح محمد فمه واستنطق لسانه، نظر للعامة حوله يتفرسهم ثم حوّل وجهه للحسن، كان الوجهان متقاربين في الشبه، غير أن السيرة ومحل الميلاد ونظرات الناس والقَدَر غيروا كل شيء، كانت أول مرة يشعر فيها محمد بأنه في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح لقوْلِ شيء يخلُد به، صاح قائلًا بدون جلجلة:

أأترك ابن رسول الله منقلبًا

إلى الطغاة الألى من دينهم مرقوا

تارك البحر فياضًا لأل فلا

هذا لعمر أبيك الطيش والخرق

نظرات القوم تبدّلت، باتت الكلمة في يدهِ أخيرًا، مُهنّد لا يفنى، بسمة الأم الوضّاءة، اندهاش أبي الفضل، ضربات قلب محمد، طرش الحسن وسمعه الخفيف، ربما بات لدولة الحسن الوليدة شاعرها ولو كذِبا، لم يجترأ الحسن الاعتراف بهذا على الرغم من استحسانه الشعر، وسرعة رد الولد وتفكيره وتنميقه للكلمات، لكن ليس بالقول وحده تُبْنى الشواهد وتُستنتج منها براءة القلب، ألجمته الكلمات وقرّر الاستزادة كاختبار، فقال ما في نفسه:

– ليس بسحر الكلمات وكسْب قلوب الناس يفك قيدك، ربما أفكر في أمر إطلاقك فيما بعد.

لم يتأثّر محمد، كان مزهوًا بنفسه، يُريد الاستزادة هو الآخر، فما هو من الآن إلا بضع كلمات تبنيه فأنشد:

ولي حرمات لا تضيع حقوقها

ولا هو ممن عنده الحق ضايع

طلعت عليه راغبًا حين قيل لي

هو ابن رسول الله بالسعدِ طالع

فبايعته لله والله عالم

بأني سعيد فيه يوم أبايع

ففزت به دينًا ودنيا ولم أكن

عن الحق أعمى وهو أبلج طالع

دعا دعوة زيدية حسنية

إلى الله يغدو المستجيب المبايع

إمام يرى التشميد في الله

كمن يسمى إماما وهو في الله رادع

همهم القوم بالمدح، صاح أحدهم:

– كأنك يا ابن تمّام تُمثِّل المعنى فتخلق له ظلًّا.

أشار الحسن إلى أحد الحراس أن يفك قيده وسط محاولات لترديد الأبيات من الحضور، وجّه الحسن قوله لسيرين:

– سأطلق سراحه من أجلك ولأجل ذكائه أيضا، على أن ينضمّ لصفوفِ الجيش المُتّجه إلى ساري، مثله لا يُترك.

(28)

الصورة التي كان يحلم بها عبد الله قد غادرت وما استقرّت، فخلق لنفسه صورًا كثيرة حتى لا يصيبها الفناء.

رغم عدم وعيه بما يجري حوله، وجهله نفسه وما تحويه من حزن غير مُسبّب بالنسبة له، إلا أنه اشتاق لهند، خرج من بيته يتفقّد أحوالها وأخبارها، يتأمّل أوصافها في مخيلته فتُثيره، يتذكّر ولادته حين رآها أول مرة، عندما أحبّ كطفل مُميّز يعرف الجمال ويُقدِّره ويستقر في قلبه، الطفل يحب؟!

إحساسٌ مبهم وانعدام القدرة على الاستنكار أو صُنع إجابة خاصة به، الكل يفرح بصبيٍّ حفظ العشرات من الكتب وبجَّل عقله الناس وأضاؤوا له القناديل في رحلته لطلب العلم، صبيٌّ لا يُقارَن إن تجبّر عقله...

لكن أن يكون صبيًّا يعلو قلبه فوق الرؤوس، ويطرد كل ذا بُغْضٍ من دائرته الخاصة، ويلتزم بحب الحياة وعشق جمالها، لن ينظر إليه أحد، سيُطفؤون على قلبه كل القناديل ويسكنونه في كهفٍ مُظْلِم بإرادته؛ ذلك لأن الناس ذاقوا مرارة الفُقدان، وتحطّمت قلوبهم إثر علامات في فضاء صدورهم لا تُهدي إلا إلى شوكٍ مُميّز، لم يعبروا ولن يسمحوا لأحدٍ باستعذاب العذاب إن أراد قلبه.

خرج من بيته تتلألأ العبرات في مُقلتيه، رأى امرأة أمامه تنظر للغابة كأنها تكتشفها، دقّق في ملامح ظهرها وقوامها فدقّ قلبه فإذا هي بهند، ترقّب أن تلتفت ليرى وجهها، سأل نفسه لِمَ قد تكون هند هنا؟! اقترب أكثر حتى ما عاد بينهما سوى بضعة أنفاس تحرق الشوق، اشتمّ نسيمها فاطمأن قلبه، خاف الفقد فهمس قُرْب أذنيها:

– هند!

استدارت فأنفى الانتظار، أخذ برأسها بين أحضانه، صرخت فكتم صرختها بصدره، احتضنها طويلًا حابسًا إياها بعينيها وأنفاسها، الأمر لا يحتمل البُعْد أكثر، الفرصة لا تأتي مرتين، تتحرّك هند كفرخٍ مذبوح، يشتدّ عليها عبد الله كفارس مخضرم، كانت الصرخة قريبة من مَسْمع محمد وسيرين إذ أتيا ركضًا يلحقا الفتاة قبل موتها، أمسكا بعبد الله وجذبه محمد بقوة، حاول الهروب منهما إلى أحضانها...

لن تعود مرة أخرى، أين هي؟! من هي؟!

ليست هند، أين هند؟! جارتنا! أين هند إذًا؟!

أين ولعي ووجدي وبدايتي ومُنتهاي؟! ظلّ يسأل نفسه والقيود البشرية من حوله تمنعه الإجابة، أظلم الكون من حوله بإختفاء هند.

الورقة الثانية

احذف ما بين الأقواس

(اليوم الذي دخل فيه الحسن ماتت فيه هند، وجُنّ عبد الله، وهرِب تمّام، وتم رفض إقامة الأسوار، وعاد عبد الله صامتًا على غير العادة...) وأنشد محمد الشعر.

منذ قديم كانت آمِل –بسبب حصانتها المنيعة ووعورة مضايقها– هي خزينة الملوك حيث يرسلون إليها الكنوز والذخائر.

(انضمّ تمّام لجيش ابن أوس مُجْبرا، جيشٌ مهزوم ونفس لم تعد تبكي، وأرض ضائعة، وساري التي استقبلتهم بالتعازي، لم يهدأ محمد بن أوس بعد أن تيقّن من تقهقر سليمان عامل الخلافة على طبرستان لِمَا فيه من تشيُّع، فخرج على صخرةٍ كبيرة يخطب في الناس ويعدهم المغنم إن أتوه برأس الحسين وأكباد من معه).

كل ملك كان يتغلّب عليه عدوه ولا يجد له مكانًا على وجه الأرض بين الأقاليم الأخرى كان يأتي لأرضِ الفؤوس آمِل كي يجد الأمان ويستريح من مكائد خصمه.

– لن يهنأ ابن أوس على قراره، فلنشد الرحال إلى ساري، لنُلقِّنه درسًا بعد صلاة الفجر علّه يتذكّر.

(سمعها محمد بن تمّام من الحسن بعد ما انضمّ للجيش الزيدي بإيمانٍ يصفو من أي كدر).

كانت مملكة فريدة ولها ملك مُستقل، لم يكن أهلها يحتاجون للأمل ولا للحناجر ولا للقوة، ليدهم ما يكفيهم، كل ما هو موجود في الدنيا موجود في آمِل والعكس أصح، كانت آمِل هي الدنيا حتى مدّت يداها للأمل.

– إن آمِل وكلار وشالوس قد ملّكهما الخليفة لنا بعد ما ملكه الله إياها، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فتسلّحوا بالقدر، واحسدوا أنفسكم وأسِرُّوا القوة، قابلوا عدوكم بالإيمان تغنمون وتنتصرون على ابن زيد.

– تنتصرون وتغنمون جيش ابن أوس وولده الذين عاثوا في الأرضِ فسادا، البيعة، البيعة.

الكثير من الحشائش الغضة في كل الفصول، مياهها صافية سائغة، وبها أنواع من الخبز والطيب من القمح والأرز والجاورس، وبها ألوان من لحوم الطيور والوحوش غير ما يوجد في غيرها.

(انطلق محمد مُتسلِّحًا بكلماته التي ذاق طعمها أخيرًا، أن تكون صاحب كلمة خالدة هذا يساوي أن تكون صاحب وطن؛ تجهل في أي مكان يقع).

طعامها لذيذ وبها مشروبات سائغة ملونة من أصفر وأحمر وأبيض مثل الورد وماء الورد.

(انطلق جيش ابن أوس يقتلع الأخضر ويُدمِّر اليابس، فرصته الأخيرة في إقناع أنفسهم بعقيدةٍ لا يعلمون سِرّها، كانوا وحوشًا

بالصوت، جديانًا للحربِ، يُناطحون الرزق، ويحاولون إمالة كف القدر بقدرةِ واقعهم).

صفاؤها من تلك المشروبات، ورِقتها مثل دمع العاشقين ومثيرة للسرور والبهجة مثل وصل المعشوق.

(كانت سيرين تبكي حالها وحال عبد الله الذي قام من مرقده ووقف في الفناء، ينظر لها، يقترب منها كالنسيم ولا يصل، يقف لوهلةٍ يتأملها من الخلف وقد أصابه سُكْر الفقد).

(تقدّم محمد بفرسه الذي سلّمه إياه أحد الفرسان، عَلِم أن محمد بن رستم قد دفع نصف ماله مقابل تجهيز من أراد الانضمام للحسن، انطلق لا يلوي على حزنٍ ولا يتسنّى لرويةِ تعقُّل، لقد وجد ضالته في قضيةٍ هي خاصته فقط).

لا تُسبِّب تلك المشروبات السُكْر كصحبة الصالحين، وهي قوية ونافعة بدرجة كبيرة لا تسبب الصداع، والخمور طيبة الرائحة مثل المسك الأذفر.

(لا يُحرِّك يوسف ساكنًا، يستخف بالنسيم وينازع دمه أن يتوقّف، لقد قال ما أعطاه الحق في الحياةِ أو الموت أو التوقف بين كليهما).

(تقابل الجيشان عند الفجر فالتحما، إذ أشرقت الشمس، ولم تتوقّف عن مشاهدة التلاطم الصخري لعقيدتيْن من نفس الأصل، أو هكذا يدّعيان).

وشتاء آمِل مثل خريف الأماكن الأخرى، وصيفها مثل الربيع، وجميع أراضيها رياض وبساتين لا تقع الأعين إلا على خضرة.

(فسواد ملبس سيرين الدائم قد ألمّ به المطر على حين غرة، نظرت للسماء ورفعت يديها، دعت الله همسًا تطلب الراحة، سمعت في تلك اللحظة صوت عبد الله يهمس: «**هند، أأنتِ هنا؟!**»).

بيوتها متصلة ببعضها البعض، تسيل المياه المتدفقة منها من جوف الصخر فوق الجبال.

(كان محمد لا يخشى القتل، وتمّام يهرب من الحياةِ ولا يتقدّم، استمرا في القتال حتى شهدت صخرة باكية جرّاء المطر على التقاءِ الوالد بولدِهِ، ابتلّ سيفاهما كأنهما قد اغترفا من الدموعِ وعرفا حاجة القدر ومُستهدفه، لم يقتربا، المطر يشتدّ والحناجر عالية من حولهما، السكون يعم مشهدهما، سهمٌ عرف طريقه وسط أمواج البشر اليسيرة، استقرّ في صدر تمام، خبّأ المطر دمعة ذرفها، لكن الصخور عملت على تكوينِ صدًى لصرخة محمد).

هواؤها معتدل ولطيف، يهب من الشمال، إلا أنها بسبب قربها من البحر تكثر بها البحيرات، فيغلب عليها في بعض الأوقات التلبُّد بالسحب والغيوم أكثر من أي بلد أخرى.

(احتضنها عبد الله حتى ما كادت تفلت، لم تُعانِ كثيرًا؛ إذ أن قبضة عبد الله كانت أشد وأقوى، صدره كان مليئًا بالشوق لهند، وعيناها التي شُبِّهَت ببحرِ قزوين، فاستخفّت نضرتها بعجزِ البلاغة).

(قبل أن يلفظ تمّام أنفاسه الأخيرة ابتسم؛ لم تكن أنفاسه الأخيرة بعيدة عن أحضان محمد على أية حال، ما شجعه أن يطلب منه طلب أخيرًا: – **عُدْ بي إلى آمِل يا محمد!**).

(التقطت سيرين أنفاسها الأخيرة بين ذراعيْ عبد الله فاستراحت، ربما كانت تُخطِّط أن تُدْفَن بجانب تمّام).

(لو أنّ يوسف قد توصّل إلى تجربةٍ لإيقاف الزمن ولو لوهلة!

لهدى محمد إلى قوةِ الكلمة

لأرشد عبد الله إلى دروبِ الحب

لعلّم سيرين كيف تُطوّع الأمل

لأخبر تمّام كيف تكون الحياة)

(لكن الزمان يمضي ولا يذكر معاناة أحد، يمضي ليُخْبِر من عاش في آمِل وشبيهاتها، أن آمِل كما اللعنة؛ المكوث فيها موْت، والبُعْد عنها فناء).

❁❁❁

تمّت يا سادة يا كِرام

1:22 صباحًا

2018–2–25

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com